# الفتح الإسلامي

# لمصر

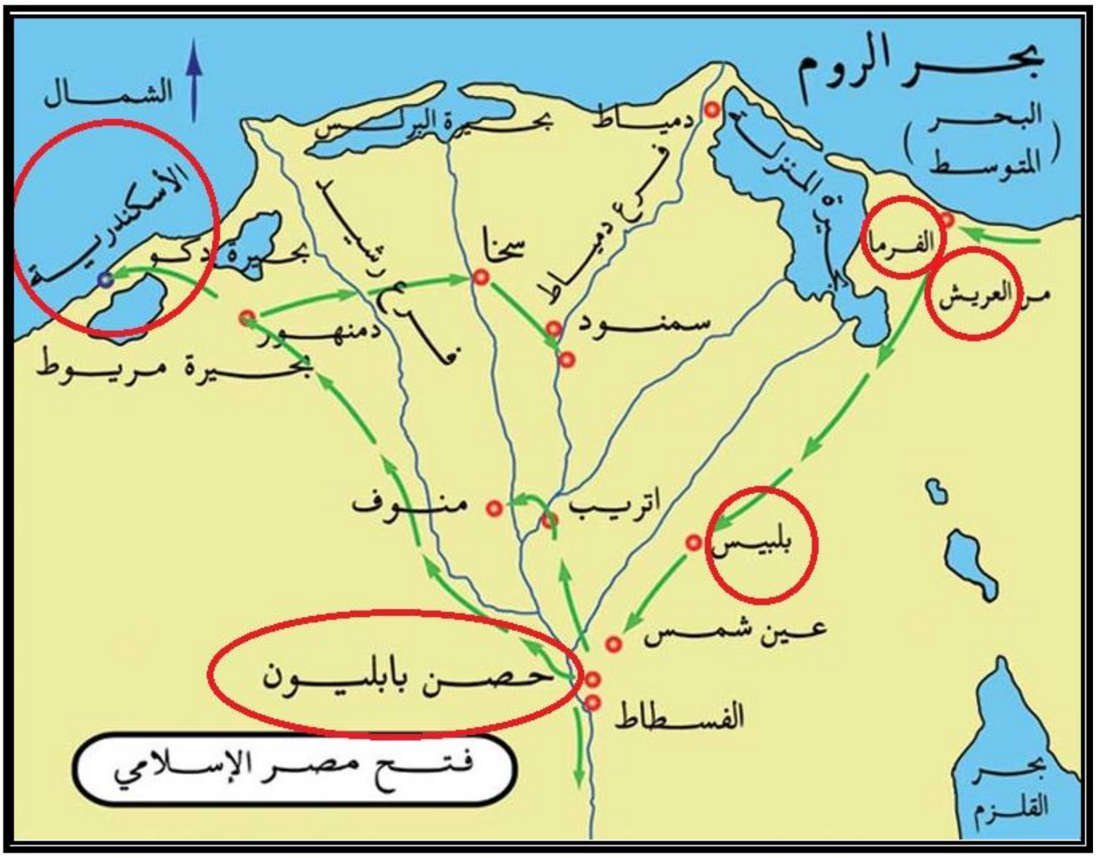

# مقدمة

### بسم الله الرحمن الرحيم

### والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وآله وصحبه أجمعين

منذ أشرق نور الإسلام في جزيرة العرب ... وأمر الله تبارك وتعالى رسوله الكريم بنشر دعوته في العالمين ... أخذ الإسلام في الانتشار في شتى بقاع الأرض شرقًا وغربًا ... وبدأت الفتوحات في عهد رسول الله ﷺ، واستمرت في عهود الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الخلفاء في العصور الإسلامية المتتالية.

وكان فتح الشام مقدمة أدت بطبيعة الحال إلى فتح مصر؛ لأسباب استراتيجية وأمنية، وأسباب تاريخية وروابط ثقافية وتجارية بين مصر والشام ... وكان الفتح في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنه وأرضاه، وقاد جيش الفتح القائد المسلم الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه ... كان عمر بن الخطاب في تردد من أمره بشأن فتح مصر؛ وما ذلك إلا خشية أن تتشتت القوات الإسلامية في مواضع متفرقة، حيث انتشرت الفتوحات في عهده في أماكن عدة ... ولكن قضى الله أمرًا كان مفعولاً... وأشرق نور الإسلام على أرض مصر ... وكان نورًا وهدايةً على مر العصور وتوالي الدول الإسلامية الحاكمة في مصر الإسلامية.

تجلت من خلال الفتح عظمة المبادئ الإسلامية ... وسماحة الدين الإسلامي ... وسمو النفوس المطمئنة لمن تمسكوا بالإسلام ورضوا به دينًا، فصغرت الدنيا في أعينهم، ووضعوا الآخرة هدفًا لهم وغاية ... فما اعتدوا على مال، ولا أحرقوا دارًا، ولم يقاتلوا إلا المقاتلين ... كانت النتيجة الطبيعية التي تتوافق مع النفس البشرية أن أهل مصر الأقباط ... وكانوا قد سخطوا على الحكم الروماني ومساوئه ... وجدوا في الإسلام والمسلمين الفاتحين منقذًا لهم،

لم يكن ذلك منذ الوهلة الأولى ولكن بعدما علموا من طباع المسلمين وسلوكياتهم من أخلاق كريمة، وعفة نفس، وقناعة وزهد في الدنيا ... ولذلك كانوا عونًا وسندًا للمسلمين على أعدائهم من الروم، ولعل أبرز دليل على ذلك ما كتبه أسقف القبط بالإسكندرية إلى أتباعه يأمرهم بتلقي عمرو بن العاص، ويعلمهم بأن حكم الروم قد ولّى وانتهى.

هكذا ... أراد الله بكنانته في الأرض خيرًا، وجعلها حرزًا ومعقلاً للإسلام، وحاميًا له ومدافعًا عنه على مر الأزمان والعصور ... والحمد لله رب العالمين.

وكان لفتح مصر أبعاد استراتيجية لحماية الدولة الإسلامية التي أخذت في الاتساع، وكان للفتح أيضًا أبعاد حضارية بما غير من الخريطة العمرانية للقطر المصري، وأبعاد إنسانية بما عامل به المسلمون الفاتحون أهل مصر من الأقباط، فلقد كان شعارهم عندما قدموا إلى مصر فاتحين هو قولهم: جئنا لننقذ خلق الله من ظلم خلق الله، فكانوا طوق النجاة لأهل مصر من اضطهاد وبغي الرومان.

## هدف البحث:

تمر علينا هذه الأيام ذكرى الفتح الإسلامي لمصر؛ إذ نحتفل بمرور أربعة عشر قرنًا على تمام نعمة الله على أهل مصر بدخولها في كنف الإسلام ... ففي مثل اليوم ١٠ من ذي الحجة عام ١٨ هـ بدأ دخول جيش الفاتحين أرض مصر، ولعله من يمن الطالع أن يكون أول عهدهم بأرض مصر هو صلاة العيد، ونحر الذبائح بأرض العريش، وفي موضع قريب قال عمرو لجنوده (المساء عيد)، وبذلك حمل ذلك الموضع هذا الاسم تخليدًا لهذه الذكرى، فسمي (المساعيد).

ونحن ـ المصريين ـ لا نجد ما نفعله شكرًا لله على تلك المنة العظيمة، ووفاءً لحق هؤلاء الفاتحين واعترافًا لهم بما أسدوه إلينا وما حقق الله لنا على أيديهم، أقل من أن نقرأ تاريخهم ونعلم كيف حققوا ذلك النصر المبين، فإن معرفة هذا التاريخ حق لنا، بل واجب علينا، وإننا

لنفخر ونباهي أننا من هذا البلد الطيب، الذي ظل منذ دخوله الإسلام حصنًا أمينًا للذود والدفاع عن الإسلام والمسلمين، في كل مكان، وعبر مختلف عصور التاريخ.

## خطة البحث:

ينقسم هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة أبواب بين مقدمة وخاتمة:

- التمهيد: وهو بعنوان "ذكر بعض فضائل مصر وأهلها".
- الباب الأول: رأيت أنه من الملائم أن نعرض عرضًا موجزًا لأم الأحداث والحقب التاريخية التي مرت بها مصر منذ بدء الخليقة وحتى قبيل الفتح الإسلامي لها.
- الباب الثاني: ويعرض للفتح الإسلامي بمراحله المختلفة.
- الباب الثالث: وهو بعنوان "أبعاد الفتح الإسلامي لمصر"، وينقسم إلى ثلاثة فصول:
  - فصل في الأبعاد الاستراتيجية
  - فصل في الأبعاد الحضارية والعمرانية
  - فصل في الأبعاد الإنسانية

والله نسأل أن يتقبل منا عملنا هذا، وأن ينفعنا بما علمنا، وينفع به كل من قرأه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

رانيا المغربي

الإسكندرية في

١٠ من ذي الحجة ١٤٢٠هـ

١٦ من مارس ٢٠٠٠ م

# تمهيد

## في ذكر بعض فضائل مصر وأهلها

في حديث مرفوع إلى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "قبط مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدًا، وأفضلهم عنصرًا، وأقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة. ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتثمر ثمارها".

وكان سحرة موسى عليه السلام من أهل مصر، فآمنوا جميعًا في ساعة واحدة، ولا يُعلم جماعة أسلمت في ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط، وهم السحرة الذين آمنوا بموسى، وقد كانوا اثني عشر ساحرًا رؤساء، تحت يد كل منهم عشرون عريفًا، تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتي ألف وأربعين ألفًا ومائتين واثنين وخمسن بالرؤساء والعرفاء. فلما عاينوا ما عاينوا من أمر موسى عليه السلام أيقنوا أن ذلك من السماء، وأن السحر لا يقوم لأمر الله، فخر الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدًا، فاتبعهم العرفاء، واتبع العرفاء من بقي، وقالوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]. ولم يُفتتن منهم أحد مع من افتُتن من بني إسرائيل في عبادة العجل.

وكانت مصر قناطر وجسورًا بتقدير وتدبير، حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه ويرسلونه كيف شاؤوا، فذلك قول الله تبارك وتعالى فيما يحكي عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وكانت جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء، وكان جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعًا لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]. والمقام الكريم: المنابر، إذ بها ألف منبر.

وقد صاهر إلى القبط من الأنبياء عليهم السلام ثلاثة: إبراهيم خليل الرحمن تزوج هاجر، ويوسف عليه السلام تزوج بنت حاكم عين شمس، ورسول الله ﷺ تزوج مارية القبطية.

# الباب الأول

## مصر منذ بدء الخليقة وحتى قبيل الفتح الإسلامي

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (خُلقت الدنيا على خمس صور على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذَنَبه: فالرأس مكة والمدينة واليمن، والصدر الشام ومصر، والجناح الأيمن العراق وخلف العراق أمة يقال لها واق وخلف واق أمة يقال لها واق واق وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، والجناح الأيسر السِند وخلف السند الهند وخلف الهند أمة يقال لها باسك (أو ناسك، وفي الخطط المقريزية: ماشك ومِنْشك) وخلف باسك أمة يقال لها مِنْسك وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، والذَنَب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس، وشر ما في الطير الذَنَب).

### نزول القبط بمصر:

عن عبد الله بن عباس قال: (كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد: سام، وحام، ويافث، ويحطون. وإن نوحًا سأل الله أن يرزقه الإجابة في ولده وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة فوعده ذلك. فنادى نوح ولده وهم نيام في وقت السحر، فنادى سامًا فأجابه يسعى وصاح سام في ولده فلم يجبه إلا ابنه أرفخشذ فانطلقا إلى نوح عليه السلام، فدعا الله عز وجل أن يبارك في سام وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشذ. ثم نادى حامًا فتلفت يمينًا وشمالاً ولم يجبه هو ولا أحد من ولده، فدعا نوح الله عز وجل أن يجعل ولده أذلاء، وكان مصر بن بيصر بن حام بن نوح نائمًا إلى جنب جده حام، فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى إلى نوح فقال: يا جدي قد أجبتك إذ لم يجبك أبي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعوتك، ففرح نوح عليه السلام وقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل فيها أفضل

البركات وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها. ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه هو ولا أحد من ولده فدعا الله أن يجعلهم شرار الخلق، ثم دعا ابنه يحطون فأجابه فدعا الله أن يجعل له البركة).

فكان أول من سكن مصر بعد أن أغرق الله قوم نوح هو بيصر بن حام بن نوح فسكن (منف) ـ وهي أول مدينة عمرت بعد الطوفان ـ هو وولده وهم ثلاثون نفسًا، ولذلك سميت مافة أو ماقة وتعني باللغة القبطية (ثلاثين).

وتوفي بيصر بن حام واستخلف ابنه مصر وكان أكبر ولده، وحاز لنفسه ما بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولاً، ومن برقة إلى أيْلة عرضًا، وحاز كل واحد من إخوة مصر قطعة من الأرض لنفسه. ولما كثر ولد مصر قطع لكل واحد قطيعة من الأرض وقسم لهم النيل، فقطع لابنه قبط موضع قبط، وقطع لابنه أشمون موضع أشمون، ولابنه أتريب موضع أتريب، ولابنه صا موضع صا، فكانت مصر على أربعة أجزاء.

ثم توفي مصر واستخلف ابنه (قبط)، وتوالت الخلافة في إخوته وأبنائهم إلى أن استخلف لوطيس بن ماليا وهو الذي كان قد وهب هاجر لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام.

## دخول إبراهيم عليه السلام مصر:

لما أمِر إبراهيم عليه السلام بالهجرة عن أرض قومه إلى الشام خرج ومعه لوط ابن أخيه، وسارة امرأته، فنزلوا (حران) ولما أصاب أهلها الجوع ارتحل بسارة إلى مصر.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إن إبراهيم قدم أرض جبار (يعني فرعون) ومعه سارة وكانت أحسن الناس (أي ذات حسن شديد)، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام. فلما دخل الأرض (يعني أرض مصر) رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال: لقد دخلت أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا

لك. فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن يبسط يده إليها فقبض اللّه يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي اللّه أن يطلق يدي فلا أضرك، ففعلت، فعاد فقبضت يده أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد فقبضت يده أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي اللّه أن يطلق يدي فلك اللّه ألا أضرك، ففعلت فأطلق اللّه يده، فدعا الذي جاء بها فقال: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي، وأعطاها هاجر، وقال: ما ينبغي لهذه أن تخدم نفسها. وقد أهدت سارةُ لإبراهيم عليه السلام هاجرَ فيما بعد، وهي التي أنجبت له ولده إسماعيل عليه السلام.

### دخول العماليق[١] مصر، وحكم يوسف عليه السلام بها:

لما توفي لوطيس بن ماليا لم يكن له ولد فحكم مصر من بعده النساء، فطمعت العماليق في مصر فغزاهم الوليد بن دومع فقاتلهم قتالاً شديدًا ثم رضوا أن يملِّكوه فملَكهم نحو مائة سنة، فطغى وأظهر الفاحشة فسلط اللّه عليه سبعًا فافترسه.

وملك مصر من بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع، وهو صاحب يوسف الذي رأى الرؤيا وعبرها له يوسف عليه السلام، فأرسل إليه الملك وأخرجه من السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه ورآه غلامًا قال: أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة؟!! فلما كلمه عظم في عينه وجل أمره في قلبه فدفع إليه خاتمه وولاه، وضُرب بالطبل في مصر أن يوسف خليفة للملك.

- بناء الفيوم:

لما ملك يوسف عليه السلام مصر وجاوزت سنه مائة سنة قال وزراء الملك له: إن يوسف قد ذهب علمه وتغير عقله ونفدت حكمته، فعنفهم الملك وأساء لهم اللفظ، ثم

[١] والعماليق هم نسل عملاق (أو عمليق) بن لاوذ بن سام بن نوح.

عاودوه بذلك بعد سنين فقال لهم: هلموا ما شئتم من أي شيء أختبره به، فاجتمع أمرهم على أن يمتحنوا يوسف في أمر الفيوم، وكانت تسمى حينئذ (الجُوبة)، وكانت لفضول ماء الصعيد، فقالوا للملك: سل يوسف أن يصرف ماء الجُوبة عنها. فدعاه الملك وكلمه في أمر الجُوبة، فقال يوسف عليه السلام: نعم أيها الملك، متى أردت ذلك فابعث لي فإني إن شاء الله فاعل. وأوحي إلى يوسف أن يحفر ثلاثة خلج: خليجًا من أعلى الصعيد، وخليجًا شرقيًا، وآخر غربيًا. فخرج ماء الجوبة من الخليج الشرقي فصب في النيل، ومن الخليج الغربي إلى الصحراء، فلم يبقَ في الجوبة ماء، ثم أدخلها الفَعَلة فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء[٢] وأخرجه منها، وكان ذلك وقت ابتداء جري النيل، وقد صارت الجُوبة أرضًا ريفية تَّرِبة وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهى من الخليج الجنوبي حتى انتهى إلى اللاهون الذي أمر يوسف بحفره فقطعه إلى الفيوم فدخل في خليجها فسقاها فصارت لجة من النيل[٣]. وأخرج إليها الملك ووزراءه وكان هذا كله في سبعين يومًا، فلما نظر إليها الملك قال لوزرائه: هذا عمل ألف يوم، ولذلك سميت (الفيوم). وقيل في مصر: ما كان يوسف عليه السلام قط أفضل عقلاً ولا رأيًا ولا تدبيرًا من اليوم.

ومن يومئذ أحدِثَت الهندسة، ولم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك، وكان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، ووضع مقياسًا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنه زباء (سيأتي ذكرها فيما بعد) مقياسًا بأنصاء (وهو صغير الذرع) ومقياسًا بإخميم، ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسًا صغيرًا بحلون، ووضع أسامة بن زيد التنوخي في خلافة الوليد بن عبد الملك (أو سليمان بن عبد الملك) مقياسًا بالجزيرة، وهو أكبر المقاييس.

---

[٢] نوع من النبات
[٣] كثر بها الماء من النيل

- دخول يعقوب عليه السلام ووفاته:

دخل يعقوب عليه السلام مصر في زمن الريان بن الوليد هو وولده، وكانوا ثلاثة وسبعين نفسًا ما بين رجل وامرأة، فأنزلهم يوسف عليه السلام ما بين عين شمس إلى الفرما. وأدخل يوسف أباه وخمسة من إخوته على الملك، وكان يعقوب عليه السلام شيخًا كبيرًا حليمًا حسن الوجه واللحية جهير الصوت، فقال له الملك: كم أتى عليك أيها الشيخ؟ قال: عشرون ومائة سنة، وكان أحد السحرة (بمين) قد وصف صفة يعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام في كتبه وأخبر أن خراب مصر وهلاك أهلها يكون على أيديهم، فلما رأى الساحر يعقوب عليه السلام قام إلى مجلسه وكان أول ما سأله: من تعبد أيها الشيخ؟ قال له يعقوب: أعبد الله إله كل شيء، فقال: كيف تعبد ما لا ترى؟ قال: إنه أعظم وأجل من أن يراه أحد، قال بمين: نحن نرى آلهتنا، قال يعقوب عليه السلام: إن آلهتكم من عمل أيدي بني آدم ممن يموت ويبلى، وإن إلهي أعظم وأرفع وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. فقال بمين للملك: هذا الذي يكون هلاك بلادنا على يديه. قال الملك: أفي أيامنا أو في أيام غيرنا؟ قال: ليس في أيامك ولا في أيام بنيك أيها الملك. قال الملك: هل تجد هذا فيما قضى به إلهكم؟ قال: نعم، قال: فكيف نقدر أن نقتل من يريد إلهنا هلاك قومنا على يديه؟ فلا تعبأ بهذا الكلام.

عاش يعقوب عليه السلام في أرض مصر ست عشرة سنة، ولما حضرته الوفاة قال ليوسف: لا تدفني بمصر، وإذا مت فاحملوني فادفنوني في مغارة جبل حبرون[٤]. فلما مات لطخوه بمر وصبر وجعلوه في تابوت من ساج وكلم يوسف الملك فأذن له وخرج ومعه أشراف أهل مصر حتى دفن.

[٤] بأرض فلسطين

- وفاة يوسف عليه السلام:

بعد موت الريان بن الوليد حكم ابنه دارم بن الريان (ويسمى عند القبط دريموس: الفرعون الرابع)، وفي زمانه توفي يوسف عليه السلام وهو ابن ثلاثين ومائة سنة، ولما حضرته الوفاة قال: إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم فاحملوا عظامي معكم. ودفن يوسف في أحد جانبي النيل فأخصب وأجدب الجانب الآخر، فحولوه إلى الجانب الآخر فأخصب وأجدب الأول، فجعلوه في صندوق من حديد وعلقوه في سلسلة من حديد معلقة بعمود في أحد جانبي النيل، وألقوا الصندوق في وسط النيل فأخصب الجانبان جميعًا.

## موسى وفرعون مصر:

بعد موت دارم بن الريان حكم كامس بن معدان، ثم حكم مصر من بعده فرعون موسى، وقيل إنه قبطي من قبط مصر يسمى طُلْما، وقيل هو من العماليق، وقيل هو الوليد بن مصعب، وقد كان من أمره مع موسى عليه السلام ما قص علينا القرآن من قصته[٥].

- حمل عظام يوسف عليه السلام:

لما أسرى موسى عليه السلام ببني إسرائيل غشيتهم ضبابة حالت بينهم وبين الطريق أن يبصروه. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان يوسف عليه السلام قد عهد عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر، فتجهز القوم وخرجوا، فتحيروا[٦]، فقال لهم موسى: إنما تحيركم هذا من أجل عظام يوسف عليه السلام فمن يدلني عليها، فقالت عجوز يقال لها سارح (أو شارح) ابنة آشار بن يعقوب: أنا رأيت عمي (تعني

[٥] مازال الخلاف قائمًا حول اسم فرعون، وإن كان أكثر القول حاليًا هو أنه رمسيس الثاني أو ابنه مرنبتاح.
[٦] وقعوا في الحيرة وضلوا الطريق.

يوسف عليه السلام) حين دفن، فما تجعل لي إن دللتك عليه؟ قال: حكمك، فدلته عليها فأخذ عظام يوسف ثم قال: احتكمي، قالت: أكون معك حيث كنت في الجنة". وقد قبر يوسف عليه السلام بمصر نحوًا من ثلاث مائة سنة، ثم حمل إلى بيت المقدس، وسارح ابنة آشار بن يعقوب هي ابنة أخي يوسف، دخلت مصر مع يعقوب ويقال إنها عاشت بعد موسى عليه السلام وزاد عمرها على ثلاث مائة وخمسين سنة.

- خروج بني إسرائيل من مصر:

أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]. وكان بنو إسرائيل قد استعاروا من المصريين حليًا وثيابًا وقالوا: إن لنا عيدًا نخرج إليه، فخرج بهم موسى ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف، ولذلك قال فرعون: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥].

وخرج فرعون في أثرهم حين أصبح بعدما طلعت الشمس، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]، فدعا موسى عليه السلام ربه وقيل له: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر، وأقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذي عبر منه موسى، فقال أدلاؤه: إن موسى قد سحر البحر حتى صار كما ترى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]، رهوًا: أي طريقًا سهلاً مفتوحًا. وأقبل جبريل عليه السلام على فرس في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فتفرقوا في الناس وتقدم جبريل فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون، وصاحت الملائكة في الناس: الحقوا الملك، حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم التقى البحر عليهم

فغرقوا. وسمع بنو إسرائيل صوت البحر حين التقى فقالوا: ما هذا؟ فقال موسى: غرق فرعون وأصحابه، فرجعوا ينظرون وقد ألقاهم البحر على الساحل. ولما أغرق الله عز وجل آل فرعون قال فرعون ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. واستأذن جماعة من الذين كانوا آمنوا من سحرة موسى في الرجوع إلى أهلهم ومالهم بمصر، فأذن لهم ودعا لهم. فترهبوا في رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهب، وكان يقال لهم الشيعة، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها أصحاب المسيح عليه السلام.

## مصر بعد زمن فرعون إلى زمن الفرس والروم:

بقيت مصر بعد غرق آل فرعون ليس بها أحد من أشراف أهلها، ولم يبقَ بها إلا العبيد والأجَراء والنساء، وكان أشرافهم من النساء، وأجمع رأيهن على أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة ابنة زباء ـ وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة ـ فخافت أن يتناولها ملوك الأرض فرأت أن تبني حصنًا تحمي به البلاد، فبنت جدارًا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، وجعلت دونه خليجًا يجري فيه الماء، وأقامت القناطر والترع، وجعلت فيه محارس[٧] ومسالح[٨]، وجعلت في كل محرس رجالاً وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد دقوا الأجراس فتجمعوا جميعًا.

وهذا الجدار هو الذي يقال له جدار العجوز بمصر، وبالصعيد بقايا منه، وقد فرغت من بنائه في ستة أشهر. وكان هناك عجوز ساحرة اسمها تدورة، فبعثت إليها دلوكة تطلب منها عمل شيء يغلبون به من حولهم، فعملت لها بربى (وهي كلمة قبطية، وهي اسم لموضع العبادة أو

---

[٧] مواضع الحراسة
[٨] المواضع التي يقف فيها الجند بالسلاح للمراقبة

البناء المحكم أو موضع السحر) من حجارة في وسط مدينة منف له أربعة أبواب، ووضعت فيه تماثيل لجنود وخيل وبغال وسفن، وقالت لهم: إن أتاكم أحد من أي جهة ستتحرك هذه التماثيل من جهتهم التي يأتون منها، وما تفعلون بهذه التماثيل يحدث مثله بالأعداء القادمين، فكانوا لا يفعلون بتلك التماثيل شيئًا إلا أصاب ذلك الجيش القادم إليهم، وكانوا أعلم الناس بالسحر.

- عصر ما بعد دلوكة:

ملكت دلوكة ابنة زباء عشرين سنة إلى أن بلغ صبي من أشراف أهل مصر يقال له دركوس بن بلطيوس فملكوه عليهم. وظلت مصر في منعة بتدبير تلك العجوز نحو أربعمائة سنة. وتوالى الحكم في إخوته وأبنائه إلى أن تولى الحكم بَوْلة بن مناكيل، وهو الأعرج الذي سبى ملك بيت المقدس وقدم به إلى مصر، إذ إنه لما مات سليمان بن داود عليهما السلام ملك بعده في بيت المقدس مرحب عم سليمان، فسار إليه بَوْلة ملك مصر فقاتله وأصاب أتراس الذهب التي عملها سليمان عليه السلام.

وقد كان أطغى من حكم مصر بعد فرعون، فقتله الله عز وجل، صرعته دابته فدقت عنقه فمات. وكان الحكام عبر العصور كلما انهدم شيء من البربى الذي بنته الساحرة لم يقدر أحد على إصلاحه إلا هي وأولاها، فلما انقطع أهل هذا البيت وانهدم البربى في زمان لقاس بن مرينوس لم يقدر أحد على إصلاحه.

- دخول بُخْتَ نَصَّر مصر:

لما مات لقاس استخلف ابنه قومس بن لقاس. وكان بُخْتَ نَصَّر قد دخل بيت المقدس وخربه وانتصر على بني إسرائيل وخرج بهم إلى أرض بابل، وقال إرميا[٩] لقومه من بني إسرائيل: أقيموا بنا في أرضنا لنستغفر الله ونتوب إليه لعله يتوب علينا. فقالوا:

[٩] من زعماء بني إسرائيل بعد عهد سليمان عليه السلام في عهد بخت نصر

إنا نخاف أن يسمع بنا بُخْتَ نَصَّر فيبعث إلينا ونحن شرذمة قليلون، ولكنا نذهب إلى ملك مصر فنستجير به وندخل في ذمته، فقال لهم إرميا: ذمة الله عز وجل أوفى الذمم لكم. فانطلق بنو إسرائيل إلى قومس بن لقاس، فقال: أنتم في ذمتي. فأرسل إليه بُخْتَ نَصَّر: إن لي عندك عبيدًا أبقوا مني فابعث بهم إلي. فكتب إليه قومس: ما هم بعبيدك، هم أهل النبوة والكتاب وأبناء الأحرار اعتديت عليهم. فحلف بُخْتَ نَصَّر إن لم يردهم ليغزون بلاده. وأوحى الله إلى إرميا أنه سينصر بُخْتَ نَصَّر على هذا الملك الذي اتخذوه حرزًا من دون الله، فقال لهم إرميا: إن لم تطيعوني أسركم بُخْتَ نَصَّر وقتلكم، وحدد لهم موضع سرير بُخْتَ نَصَّر الذي يضعه بعدما يظفر بمصر وملكها، ووضع لهم أربعة أحجار في موضع قوائمه الأربع. ودار القتال بين بُخْتَ نَصَّر وقومس سنة، ثم انتصر بُخْتَ نَصَّر فقتل قومس وسبى جميع أهل مصر وقتل من قتل. ولما أراد قتل الأسرى ورأى إرميا معهم سأله لِمَ يراه بين أعدائه وقد أمَّنه وأكرمه، فقال له إرميا: جئتهم محذرًا، وأخبره بموضع الأحجار تحت سريره، فلما رفع سريره وجد مصداق ذلك، فقال لإرميا: لو أعلم فيهم خيرًا لوهبتهم لك. وعاد إرميا إلى بيت المقدس بوحي من الله. ورد بُخْتَ نَصَّر أهل مصر إليها بعد أربعين سنة، فعمروها. قال بعض أهل مصر أن ملوك مصر كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها بكِراء (أجر) معلوم، وكان ربع هذا الخراج للملك، والربع للجند والحرب، والربع في مصلحة الأرض وبناء الجسور والقناطر، والربع الرابع يدفن في كل قرية لنائبة تنزل بها. وهذا الربع الأخير الذي يدفن في الأرض من خراج كل قرية هي كنوز فرعون التي يتحدث بها الناس.

## مصر بين فارس والروم:

كانت الروم وفارس أعظم قوتين في ذلك الزمان. فقاتل الروم أهل مصر، فصالحهم أهل مصر على أن يدفعوا شيئًا مسمىً كل عام. ثم انتصرت فارس على الروم ورغبوا في مصر، وامتنع أهل مصر وأعانتهم الروم، فلما خشي أهل مصر انتصار فارس عليهم صالحوهم على أن يكون ما يدفعونه للروم بين فارس والروم. وأقامت مصر بين فارس والروم نصفين سبع سنين إلى أن انتصرت الروم على فارس، وكان ذلك في عهد رسول الله ﷺ وقبل وفاته وبعد ظهور الإسلام، فصارت الشام كلها ومصر خالصًا للروم، وذلك قوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥]. وكانت الفرس قد أسست حصن باب اليون بفسطاط مصر، فلما أخرجهم الروم من مصر أتم الروم بناء ذلك الحصن وأقامت به. فلم تزل مصر في حكم الروم حتى فتحها الله على المسلمين.

## بناء الإسكندرية:

وجه هرقل ملك الروم المقوقس (واسمه قيرس) أميرًا على مصر فنزل الإسكندرية. وكان الذي أسس الإسكندرية وبناها هو ذو القرنين الرومي واسمه الإسكندر، وبه سميت الإسكندرية، وكان أبوه أول القياصرة. وقيل إنه رجل من أهل مصر اسمه مرزبَّة بن مرزبَّة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وقيل هو من أهل لوبية، وهي كَوْرة[١٠] من كُوَر مصر الغربية، وقيل هو رجل من حِمْيَر من أهل اليمن.

وفي تسميته بذي القرنين قيل لأنه جاوز قرن الشمس من المشرق والمغرب، وقيل لأن الله تعالى بعثه إلى قومه فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله، ثم بعثه إلى قومه فضربوه على قرنه فمات

[١٠] هي القرية الصغيرة

فسمي ذا القرنين، وقيل لأنه كان له غديرتان في رأسه من شعر، وقيل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس وكان أول من عمرها وبنى فيها، فلم تزل على بنائه ومصانعه، ثم تداولها ملوك مصر بعده، فبنت دلوكة ابنة زباء منارة الإسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون. فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الأرض اتخذ بها مجلسًا وبنى فيها مسجدًا. ثم إن ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم، إلا بناء سليمان بن داود عليهما السلام لم يهدمه ولم يغيره، وأصلح ما كان رث منه، وأقر المنارة على حالها. ثم بنى الإسكندرية، ثم تداولها الملوك بعده من الروم وغيرهم، ليس من ملك إلا يكون له بناء بالإسكندرية يعرف به وينسب إليه". ويقال إن الذي بنى منارة الإسكندرية كليوباترا الملكة، ويقال إن الذي بنى الإسكندرية هو شداد بن عاد، والله أعلم.

وفي الإسكندرية خمسة مساجد مقدسة: مسجد موسى النبي عليه السلام عند المنارة، ومسجد سليمان عليه السلام، ومسجد ذي القرنين أو الخضر وهو الذي بناه عند النجاة بالقيسارية، ومسجد ذي القرنين أو الخضر عند باب المدينة، ولكل واحد منهما مسجد ولكن ليس معروفًا أين هو، ومسجد عمرو بن العاص الكبير. وكان الرخام يغطي أرض وجدر الإسكندرية وكان ناصع البياض، وكان لباسهم فيها السواد والحمرة، ولذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام، ولم يكونوا يَسْرِجون فيها بليل من نصوع بياض الرخام. ويقال: بنيت الإسكندرية في ثلاثمائة سنة، وسُكنت ثلاثمائة سنة، وخربت ثلاثمائة سنة، ولقد ظلت سبعين سنة ما يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض بلاطها، وظلت سبعين سنة ما يُسْتَسْرَج بها (أي لا يوقد فيها سراج من شدة بياض رخامها).

## مساويء الحكم الروماني في مصر ـ الدولة والدين في مصر البيزنطية[١١]:

قام الاضطهاد الروماني للأقباط في مصر على أساس ديني عبر مختلف مراحل الإمبراطورية، ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

١) في عصر دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م): تعددت إصلاحات هذا الإمبراطور في جميع المجالات الإدارية والمالية وغيرها، ولكن مهمته كانت غاية في الصعوبة؛ إذ كان عليه أن يؤمن حدود دولته الخارجية، وقمع الثورات الداخلية، وتجميد حركة الدين الجديد (المسيحية) الذي يهدد بالقضاء على جميع العقائد الوثنية التي ألفتها الإمبراطورية ورفض قدسية شخص الإمبراطور ... ومع ذلك لم يسارع إلى الاضطهاد، وإنما ظل فترةً من حكمه يعمل على تأكيد مركزه على رأس الدولة، ووضع مبدأ ديني جديد هو زيادة قدسية الإمبراطور، حتى عام ٢٩٨ م إذ قام بتطهير الجيش والإدارة من المسيحيين، وفي عام ٣٠٣ م بدأ في أقسى اضطهاد للمسيحيين: فصدرت الأوامر الإمبراطورية بجمع نسخ الكتاب المقدس وحرقها، وتدمير الكنائس ومنع المسيحيين من الاجتماع والعبادة، واستمر ذلك حتى بعد عصر دقلديانوس.

٢) عصر قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧ م): كان أول إمبراطور مسيحي، وأول ما قام به هو الاعتراف الرسمي بالمسيحية، وعمل المسيحيون في حرية واطمئنان إلى أن ظهر انقسامان: الأول هو دعوة أريوس للعقيدة الأريوسية، والثاني هو تشدد مليتيوس في موقفه من الذين ارتدوا عن المسيحية في عهد الاضطهاد. وقد تحرج الموقف كثيرًا حتى اضطر أسقف الإسكندرية (إسكندر) إلى عقد مجمع من قساوسة مصر وليبيا واستنكار العقيدة الأريوسية. في ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يصلح بين أريوس وإسكندر فقرر عقد مجمع ديني عالمي في نيقيا في آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م. وانعقد المجمع،

---

[١١] الاضطهاد الديني في مصر الرومانية منذ ظهور المسيحية ـ مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ـ د/ مصطفى العبادي ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٩٢

وبعد مناقشات طويلة أمكن الوصول إلى (صياغة عقيدة) تتضمن المباديء المسيحية الأساسية ووضعت في ألفاظ لا تثير الخلافات المذهبية، واقترح قسطنطين إضافة لفظًا واحدًا يصف العلاقة بين الأب والابن بأنهما من طبيعة واحدة. وتم نفي من عارض هذا القرار وفيهم أريوس نفسه، ثم حاول الإمبراطور استكمال الوحدة فعفى عن أريوس وأمر بإعادته إلى منصبه في الإسكندرية، ولكن أسقف الإسكندرية رفض ذلك، وبدأ خلاف عنيف بين كنيسة الإسكندرية وقصر الإمبراطور في القسطنطينية.

٣) انقسام الإمبراطورية: انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية في القسطنطينية وغربية في روما، وتحسنت العلاقات بين الإسكندرية وروما وساءت بين الإسكندرية والقسطنطينية. وكانت لكنيسة الإسكندرية مكانة عالمية لا يضاهيها سوى كنيسة روما. وتولى أثناسيوس مركز الأسقف في الإسكندرية بعد الإسكندر، وكانت الخلافات مستمرة بينه وبين إمبراطور القسطنطينية، بينما سانده إمبراطور روما، وكان أساس الخلاف حول مسألة أريوس. وبعد وفاة إمبراطور روما انفرد إمبراطور القسطنطينية بالشرق والغرب، واشتد اضطهاده لأثناسيوس إلى أن تولى العرش إمبراطور مؤيد لأثناسيوس فعفا عنه وأعاده إلى كرسيه في كنيسة الإسكندرية. ثم تولى الإمبراطورية الإمبراطور فالنس الذي كان مواليًا للأريوسية، وبعد وفاة أثناسيوس خلفه بطرس ولكن الإمبراطور لم يعترف به وعين أسقفًا يسمى (لقيوس) الذي راح ينتقم من أتباع أثناسيوس وخاصةً بين الرهبان، كل ذلك أدى إلى ثورة الأهالي والرهبان ضد الأسقف الأريوسي مما اضطره إلى الفرار إلى القسطنطينية، وتمكن بطرس الذي كان قد فر إلى روما من العودة إلى الإسكندرية.

٤) عصر ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م): أراد هذا الإمبراطور أن يعالج المشاكل الدينية في الإمبراطورية، فأعلن ضرورة تعميم عقيدة مجمع نيقيا على كل الكنائس. وخطا بعد

ذلك نحو عقد مجمع في القسطنطينية لم يشهده ممثلو الكنائس المصرية، فأعلن أن كنيسة القسطنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف بعد كنيسة روما، وبذلك ألغى مكانة كنيسة الإسكندرية كثاني كنيسة بعد روما، وقصر نشاط كل كنيسة على الإقليم الذي تقع فيه، فاقتصر نشاط كنيسة الإسكندرية على الإقليم المصري. وقد عمل على شغل الكنائس جميعًا في القضاء على الوثنية في أرجاء الإمبراطورية، وتولى أسقف الإسكندرية (ثيوفيلوس) هذه المهمة ونفذها بوحشية، ثم تحول إلى اضطهاد خصومه في الرأي من رهبان الصحراء الغربية مستخدمًا في ذلك قوة من الجنود الرومان.

في عام ٤١٢ م توفي ثيوفيلوس وخلفه الأسقف كيرلس الذي يغلب على شخصيته طابع التطرف مع ميله إلى العنف. وأهم ما يتميز به عصره نشأة الصراع المذهبي بين القسطنطينية والإسكندرية، فبعد إعلان الكنيسة في القسطنطينية كثاني كنيسة بعد روما أصبح أسقف القسطنطينية متحدثًا رسميًا باسم الإمبراطور. في ذلك الوقت حدث خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحيتين الإلهية والبشرية، ونادى نسطور أسقف القسطنطينية ببشرية المسيح إلى جانب ألوهيته، وانقسمت الكنائس إلى فريقين: فريق يؤيد الدعوة النسطورية، والتي تسمى أيضًا الملكانية لأنها تعبر عن رأي الإمبراطور، وفريق معارض في مصر وسوريا وأرمينيا يدعو إلى اعتبار المسيح ذا طبيعة إلهية واحدة، وأطلق عليهم اسم (أصحاب الطبيعة الواحدة)، وأطلق على السوريين منهم اسم (اليعاقبة) نسبةً إلى زعيمهم يعقوب. وراح كيرلس يهاجم دعوة نسطور، حتى أنه نجح في مجمع أفسوس عام ٤٣١ م في فرض رأيه على الأعضاء وإصدار حكمًا ضد نسطور. وتولى بعد كيرلس الأسقف ديوسقورس، وتولى بعد أسقف القسطنطينية أسقف جديد (فلافيانوس) بعث الفكرة النسطورية، ودعا لضرورة إثبات الطبيعتين للمسيح، واستطاع ديوسقورس الانتصار في مجمع أفسوس الثاني عام ٤٤٩م.

٥) عصر ماركيانوس: توفي ثيودوسيوس عام ٤٥٠ م، وخلفه ماركيانوس الذي ألغى قرارات مجمع أفسوس الثاني، ودعا إلى عقد أكبر مجمع قديم في خلقيدون عام ٤٥١م، وعن هذا المجمع خرجت عقيدة دينية (جديدة) تؤكد أن "للمسيح طبيعتين، غير مندمجتين، ولا متغيرتين، ولا منقسمتين، ولا منفصلتين"، وتم نفي ديوسقورس. ولكن قرارات هذا المجمع لم تنجح في إيجاد الوحدة الدينية، وبقيت دعوة الطبيعة الواحدة سائدة في مصر وسوريا، وأخذتا تعملان على الانفصال عن القسطنطينية إلى أن تم الاتفاق أخيرًا على أن يعين المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبرطور، وذلك عام ٤٨٢م. هذه الانقسامات المذهبية كانت دوافعها الحقيقية عصبية قومية ورغبة في الانفصال؛ لأن الاختلافات لم تكن جوهرية على النحو الذي قد يبدو لأول وهلة، فالجميع يقرون ببشرية المسيح وألوهيته معًا، ولكن فريق المصريين والسوريين كان يرى أن الاندماج كان كاملاً بحيث لا يجوز تصور التمييز بينهما، أما الفريق الآخر (خلقيدون) فكان يرى ضرورة تصور الطبيعتين لإدراك معنى التضحية التي قام بها المسيح.

ولكن هذا الاختلاف حول لفظ (الطبيعتين) كانت له عواقب وخيمة؛ إذ انقسم الناس في كل مكان إلى فرق ومذاهب كثيرة، وانقسمت بعض المذاهب الكبرى إلى أحزاب مختلفة كما حدث لليعاقبة في مصر وسوريا، وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدتها. ونشطت القبائل النوبية في مصر وأخذ الفرس يتقدمون غربًا حتى هددوا حدود مصر الشرقية.

٦) عصر جستنيان الأول (٢٥٨ ـ ٥٦٥ م): نجح في تحقيق الكثير مما سعى إليه في الإصلاح، سوى الوحدة الدينية؛ لسببين: الأول هو عمق الانقسامات الدينية رغم محاولته تعميم عقيدة خلقيدون، والثاني هو الانقسام المذهبي داخل أسرة الإمبراطور ذاته؛ إذ كانت زوجته الإمبراطورة ثيودورا تدين بالمذهب اليعقوبي. وقد عمل جستنيان

فعليًا على تحقيق الوحدة السياسية أكثر من تحقيق الوحدة الدينية، فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية في الإمبراطورية ملكانيين، ويكونوا مندوبين دينيين للإمبراطور شخصيًا في الولايات، ولم يعبأ بعد ذلك أن يكون سائر القساوسة في الولايات يتبعون مذهبه ما داموا لا يصلون إلى الرئاسة. ونظرًا لمقاومة الشعب المصري لهذا الوضع فقد كان الإمبراطور يجري في الخارج مراسم تعيين أسقف الإسكندرية ثم يرسله إلى الإسكندرية في حراسة تفرضه على الكنيسة فرضًا، أما سائر المصريين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة.

٧) لم يكن خلفاء جستنيان في مثل قدرته، لذلك عادت الفوضى في البلاد وعادت الخلافات المذهبية في مصر، فقاوم المصريون الأسقف الملكاني؛ لذلك وقفوا مع هرقل عندما قام بثورة ضد الإمبراطور، حتى أصبح هو نفسه إمبراطورًا ضاق المصريون من جديد بأساقفته الملكانيين. حدث في أثناء ذلك أن استطاعت الدولة الفارسية الاستيلاء على سوريا وفلسطين ومصر عام ٦١٦ م، وبعد بضعة أعوام تمكن هرقل من استردادها. وحاول هرقل التفاهم مع الأقباط في مصر على أساس فكرة جديدة هي "الإرادة الواحدة"، ولكن المصريين رفضوا التفاهم، فعين هرقل أسقفه الملكاني قورش (قيرس) المعروف بالمقوقس، وكان معروفًا بقسوته وكراهيته لأصحاب الطبيعة الواحدة؛ فأطلق على المصريين حملة اضطهاد عنيفة مما زاد من كراهيتهم ونفورهم من الحكم الروماني.

وهنا تظهر دولة شرقية جديدة، خرجت من قلب جزيرة العرب، تحمل معها دينًا جديدًا هو الإسلام، وعندما تطلعت للخارج وجدت إمبراطوريتين متداعيتين هما الإمبراطورية الفارسية شرقًا، والرومانية أو البيزنطية غربًا. وفي أول محاولة لبسط دولة الإسلام نفوذها في الخارج انهارت الإمبراطوريتان معًا. وكان فتح مصر على يد العرب بقيادة عمرو بن العاص عام ٦٤٠م ـ ٢١ هـ.

# الباب الثاني

## دخول الإسلام مصر

قال رسول الله ﷺ: "إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحماً". ورحمهم هي أن هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانت منهم، والذمة: العهد. وقال رسول الله ﷺ: "استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم".

عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته أن يخرج اليهود من جزيرة العرب، وقال: "الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله".

عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة". وصهرهم أن رسول الله ﷺ تزوج منهم مارية القبطية أم ولده إبراهيم.

رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

في نهايات العام السادس الهجري، وبعد عودة الرسول ﷺ من الحديبية، بعث إلى الملوك في سائر الأقطار، وكان من ذلك بعثه حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وكان نص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا

فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]". فقرأه المقوقس وجعله في حق من عاج وختم عليه.

فلما ذهب حاطب بن أبي بلتعة بالكتاب وقرأه المقوقس قال: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو علي؟ فقال له حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه؟ فسكت، فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يُعتبَر بك. وإن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي الله به فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

وقد أرسل المقوقس إلى حاطب ليلاً وليس عنده أحد إلا ترجمان له، فقال: ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك؟ قال: لا تسألني عن شيء إلا صَدَقْتُك[١٢]. قال: إلى ما يدعو محمد؟ قال: إلى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم. قال: من أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم. قال: فهل يقاتل قومه؟ قال: نعم، قال: صفه لي، فوصفه له، فقال: قد بقيت أشياء لم تذكرها: في عينيه حمرة قلما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، ويركب الحمار، ويلبس الشملة[١٣]، ويجتزيء بالثمرات والكسر[١٤]، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم. قال: هذه صفته. قال: قد كنت أعلم أن نبيًا قد بقي وقد كنت أظن أن مخرجه من الشام، فأراه قد خرج في العرب، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يُعلَم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه.

---

[١٢] أي: قلت لك الصدق.
[١٣] كساء من صوف أو شعر يتلفف به.
[١٤] المراد: يكتفي بقليل الطعام

ثم دعا المقوقس كاتبًا يكتب بالعربية، فكتب:

"لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام. أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام".

فأما الجاريتان فكانت إحداهما مارية القبطية التي تزوجها رسول الله ﷺ وأنجبت له ولده إبراهيم الذي توفي وعمره ستة أشهر، والثانية أختها سيرين أهداها إلى الصحابي حسان بن ثابت على أرجح الأقوال. وقد اختار الله لرسول الله مارية، وذلك أنه قال لهما: قولا: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فبدرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها. والبغلة هي دُلدُل، وقد بقيت إلى زمن معاوية بن أبي سفيان، وأما الكسوة فيقال إن رسول الله ﷺ قد كفن في بعضها.

### بشرى عمرو بن العاص بملك مصر:

كان عمرو بن العاص قد دخل مصر في الجاهلية مع أحد شمامسة الإسكندرية لقيه في بيت المقدس، ودخل عمرو الإسكندرية ورأى من عمارتها وأعجب بكثرة أموالها وخيرها، وقال: ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الخير. ووافق دخول عمرو يوم عيد في الإسكندرية يجتمع فيه الملوك والأشراف ولهم أكرة (كرة) من الذهب يترامون بها، وقد علموا ممن مضى منهم أن من وقعت الأكرة في كُمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. ورمى رجل منهم بالأكرة فأقبلت تهوي حتى وقعت في كُم عمرو، فعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا؟!! هذا ما لا يكون أبدًا ... وبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، وعلم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالاً.

## مراحل الفتح الإسلامي لمصر:

- استأذن عمرة بن العاص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في أن يفتح مصر، وكان ذلك في العام الثامن عشر الهجري، وتوجه إليها عمرو بن العاص في أربعة آلاف من رجاله، ثم أرسل إليه عمر بن الخطاب كتابًا يأمره فيه بالرجوع عن مصر إن لم يكن قد دخلها، فإن لحقه هذا الكتاب وقد دخل مصر فليمضِ في فتحها؛ وذلك حتى لا تتشتت القوات الإسلامية في مساحات واسعة إذ كانت الجيوش منتشرة في أماكن عدة لنشر الإسلام. فقرأ عمرو بن العاص كتاب عمر بن الخطاب وهو بأرض مصر، فمضى في فتحها.
- توجه عمرو بن العاص من أرض الشام إلى مصر بمحاذاة البحر المتوسط (بحر الروم) فدخل العريش وأدركه النحر بها[١٥]، فضحى يومئذ عن أصحابه بكبش. ثم توجه بعد ذلك إلى الفَرَما وقاتل فيها الروم قتالاً شديدًا، ثم فتح الله على يديه. وقد كان قبط الفَرَما أعوانًا لعمرو بن العاص استجابةً لما كتب به إليهم أسقف القبط بالإسكندرية لما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، يعلمهم أن ملك الروم قد انقطع وأنه لا تكون للروم دولة، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص.
- ثم توجه عمرو بعد ذلك لا يواجَه إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر، ثم تقدم عمرو بن العاص بمن معه دون مقاومة تذكر حتى أتى بلبيس وفتحها بعد قتال دام شهرًا، ثم مضى حتى بلغ أم دنين، ثم توجه إلى حصن "باب اليون" فأبطأ عليه الفتح فأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب المدد فأرسل إليه أربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل يعدل ألفًا، منهم الزبير بن العوام وعُبادة بن الصامت، وقال له عمر: اعلم أن معك اثنا عشر ألفًا، ولا تُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة.

---

[١٥] وذلك في يوم عيد الأضحى

- وكان الروم قد خندقوا حول الحصن وجعلوا للخندق أبوابًا، وحاصر المسلمون الحصن، ولما طال الحصار وأبطأ الفتح على المسلمين قال الزبير: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين. فوضع سلمًا إلى جانب الحصن ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوا جميعًا. فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه، وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من الخارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا، فهربوا، فقام الزبير وأصحابه بفتح باب الحصن ودخل المسلمون الحصن. وكان بالحصن جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس، وكان المقوقس وجماعة من أكابر القبط قد هربوا من الحصن إلى الجزيرة لما خافوا ظهور المسلمين عليه، فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص، قال: إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة[١٦]، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم تندمون إن كان الأمر مخالفًا لطلبتكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين، وخاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟! ورد عمرو بن العاص على رسالة المقوقس مع رسله، فقال: إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام

[١٦] يعني قليلة العدد.

فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

فلما جاءت المقوقس رسله قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم. فقال المقوقس: والذي يُحلَف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهو محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم. ورد إليهم المقوقس رسله وقال: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم، فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عُبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون هو المتكلم وألا يجيبهم إلى غير هذه الثلاث خصال وذلك أمر أمير المؤمنين.

وكان عُبادة بن الصامت أسودًا، فلما قدموا على المقوقس بالجزيرة هابه المقوقس لسواده وقال: نحُّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني، فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، ونرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله. قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟! وإنما ينبغي أن يكون دونكم. قالوا: كلا، إنه وإن كان أسودًا كما ترى فإنه من أفضلنا موضعًا وأفضلنا عقلاً ورأيًا، وليس يُنكَر السواد فينا. فقال المقوقس لعُبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك، وإن اشتد

كلامك علي ازددت لذلك هيبة. فتقدم إليه عُبادة وقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلَّفت[١٧] من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادًا مني وأفظع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد وَلَّيْت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ ذلك أنا إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبةً في الدنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل لنا ذلك وجعل الغنائم حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشَمْلة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك من الدنيا إلا ذاك لكفاه، وإن كان له قنطار من ذهب لأنفقه في طاعة الله؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا نبينا ﷺ وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا فيما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك قال لمن حوله من الروم: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه ما أخرجهم الله إلا لخراب الأرض وما أن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم قال لعُبادة: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولَعَمْري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرًا وأنتم في

[١٧] أي تركت

ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به.

فقال عُبادة بن الصامت: يا هذا، لا تَغُرَّنَّ نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنَّا لا نقوى عليهم فلَعَمْري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًا فذلك والله أرغب ما نكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك أنَّا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا، إما أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما

علينا وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولا نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم[١٨] في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم. هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عُبادة يديه وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم. فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال: قد فرغ القول فما ترون؟ فقالوا: لو رضوا منا أن نضاعف لهم ما أعطيناهم مرارًا لكان أهون علينا، فقال المقوقس لعُبادة: قد أبى القوم كما ترى، فراجع صاحبك على أن نعطيكم ما شئتم وتنصرفون. فقام عُبادة وأصحابه. فقال المقوقس لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين. فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذن أخبركم: أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولابد من الثالثة. قالوا: فنكون لهم عبيدًا أبدًا، قال: نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا

[١٨] أي: عاداكم

عن آخركم وتكونوا عبيدًا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين. قالوا: فالموت أهون علينا.

وكان المسلمون عند ذلك قد ظفروا بمن في حص باب اليون وقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر، واتجهت السفن كلها إلى الجزيرة، وكان أصحاب المقوقس قد هدموا الجسر الذي بين الفسطاط (باب اليون) والجزيرة، ولما اتجه المسلمون إليهم قال المقوقس لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون؟ فوالله لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعًا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهًا، فأطيعوني قبل أن تندموا. فلما رأوا من المسلمين ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها، فأبى ذلك من حضرني، وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم ورجعوا إلى قولي، فأعطني أمانًا نجتمع أنا في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعًا، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه.

فاستشار عمرو أصحابه، فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم، ليس في ذلك الصبي ولا الشيخ ولا النساء، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يُتعرض لهم في شيء منها، وأن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام. وطلب المقوقس من الروم أن يُخَيرَّوا، فمن أراد الخروج إلى أرض الروم خرج، ومن أراد الإقامة بأرض مصر أقام.

وبعث المقوقس خطابًا إلى ملك الروم يعلمه فيه بالأمر كله، فاستشاط هرقل الروم غضبًا ورد عليه بكتاب قال فيه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا، وبمصر من بها من

كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا فإن عندك من بمصر من الروم أكثر من مائة ألف معهم السلاح والعدة والقوة، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم، فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم بالقتال ولا يكون لك رأي غير ذلك.

وكتب ملك الروم خطابًا آخر إلى جماعة الروم. ولما أتى المقوقس كتاب هرقل قال: والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا، وإن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقتل يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا فيمن قتلوا منا، ويقولون إنهم إن قُتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا على قدر بُلْغة العيش من الطعام واللباس، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟ وكيف صبرنا معهم؟ واعلموا معشر الروم أني والله لا أخرج مما دخلت فيه ولا مما صالحت عليه العرب، وإني لأعلم أنكم سترجعون غدًا إلى رأيي وقولي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني، وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، وَيْحَكُم! ! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنًا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة؟! !

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص وقال: إن الملك قد كره ما فعلت وبعث إلي وإلى جماعة الروم ألا نصالحكم وأمرهم بقتالكم حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني. وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأتِ من جهتهم نقض، وأنا متم لك على نفسي،

والقبط متمون لك على الصلح الذي عاقدتم عليه، وأما الروم فأنا بريء منهم، وأطلب إليك أن تعطيني ثلاثًا، فقال عمرو: وما هن؟ قال: لا تنقض بالقبط، وأدخلني معهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك على ذلك. وأما الثانية: فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا[١٩] وعبيدًا، فإنهم أهل لذلك، فإني نصحتهم فاستغَشُّوني ونظرت لهم فاتهموني. وأما الثالثة: إن أنا مت فادفني في كنيسة أبي يُحَنَّس بالإسكندرية. فأجابه عمرو إلى ما طلب.

- **فتح الإسكندرية:**

بعدما تم لعمرو بن العاص ما سبق، أرسل الكتائب إلى جميع أنحاء مصر لفتحها، فأرسل عبد الله بن حُذافة إلى عين شمس، وخارجة إلى الفيوم وقرى الصعيد، وعُمَيْر بن وهب الجُمَحي إلى الشمال، وتوجه هو بالجيش نحو الإسكندرية.

وكان ملك الروم عندما بلغه خطاب المقوقس قد بعث الجيوش فأغلقوا باب الإسكندرية، وتجهزوا لحرب المسلمين وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح. فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين، وخرج معهم جماعة من رؤساء القبط وكانوا قد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق والأنزال والضيافة ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية، وصدق عليهم حديث رسول الله ﷺ في أن القبط سيكونون عونًا للمسلمين على أعدائهم.

وفي توجه عمرو بن العاص من الفسطاط إلى الإسكندرية لم يَلْقَ من الروم أحدًا حتى بلغ ترنوط (مريوط) فقاتل فيها طائفة من الروم قتالاً خفيفًا وهزمهم الله تعالى، وأرسل عمرو بن العاص شُرَيْك بن سلمى في آثارهم فأدركهم عند الكوم الذي سمي باسمه (كوم

[١٩] الفيء: الغنيمة تنال بعد القتال

شُرَيْك)، فقاتلهم شُرَيْك فهزمهم. ثم التقى عمرو مع الروم في سُلْطَيس فاقتتلوا بها قتالاً شديدًا ثم هزمهم الله تعالى، ثم التقوا بالكِرْيون واقتتلوا بها بضعة عشر يومًا، وصلى عمرو بن العاص يومئذ صلاة الخوف بكل طائفة ركعة سجدتين، ثم فتح الله للمسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون متينة لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حُلْوة إلى قصر فارس ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها. مكث عمرو بن العاص بحُلْوة شهرين، ثم توجه إلى المَقْس فخرجت عليه الخيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن، فواقعوه فقتل من المسلمين يومئذ اثنا عشر رجلاً.

وكانت رسل ملك الروم تتوالى على الإسكندرية في المراكب بالمدد للروم، وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حين انتصرت الروم على العرب بالشام. وأمر الملك بجهازه لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظامًا لها، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقي للروم بعد الإسكندرية من حرمة. فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته، وكان موته العام التاسع عشر الهجري، فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع منهم جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية. وحينذاك قوي المسلمون وألحوا[٢٠] بالقتال على أهل الإسكندرية فقاتلوهم قتالاً شديدًا.

وكان عمرو بن العاص قد أقام محاصرًا الإسكندرية شهرًا، فكتب إليه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ

[٢٠] أي: اشتدوا في قتالهم

سنتين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك بأربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُرْ الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد[٢١]، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة، ولْيَعُجَّ[٢٢] الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم. وفعل عمرو بن العاص ما أمره به أمير المؤمنين، فكان لهم النصر، ذلك أنه رأى أن أمر المسلمين لا يُصلح آخره إلا ما أصلح أوله، ويعني بذلك الأنصار، فولى عمرو بن العاص قتال الروم لعُبادة بن الصامت وعقد له بالجيش، فتقدم عُبادة وقاتل الروم ففتح الله على يديه الإسكندرية يوم الجمعة لمستهل المحرم من سنة عشرين للهجرة.

فلما هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية، وهرب الروم في البر والبحر، ترك عمرو بن العاص بالإسكندرية حامية قليلة من ألف رجل من أصحابه بقيادة عبد الله بن حُذافة، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر. ولما رأى بعض الروم بالإسكندرية قلة عدد الحامية الإسلامية بها أغراهم ذلك فأرسلوا إلى ملك الروم[٢٣] سرًا يطلبون معونته، فأجابهم إلى ذلك وجهز حملة بحرية لاستعادة الإسكندرية قوامها ثلاثمائة سفينة، وشاور عبد الله بن حُذافة أصحابه، واتفقوا على عدم جدوى المقاومة، ودخل الروم الإسكندرية من البحر فقتلوا من كان بها من المسلمين إلا من هرب منهم. وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكرَّ راجعًا ففتحها وأقام بها، وكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: إن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد. وقد

[٢١] يريد أن يتعاونوا في القتال ويكونوا كالبنيان المرصوص
[٢٢] أي: يرفعوا أصواتهم بالدعاء
[٢٣] وهو قسطنطين بن هرقل

قتل من المسلمين من بدء فتح الإسكندرية إلى أن فتحت عنوة اثنان وعشرون رجلاً. ولما بلغ عمر بن الخطاب خبر فتح الإسكندرية خر ساجدًا وقال: الحمد لله. وقد دخل عمرو الإسكندرية من ناحية قنطرة سليمان، وكان قد دخلها في الفتح الأول من الباب الذي ناحية كنيسة الذهب.

ثم كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يصف الإسكندرية يقول: أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربع مائة ملهى للملوك.

وقد ترحل من الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو بن العاص أو الليلة التي خافوا فيها دخوله سبعون ألف يهودي. وقد وجد عمرو بالإسكندرية اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر. واختلف الناس على عمرو في قسمها، وكان أكثر الناس يريدون قسمها، فقال عمرو: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه كتابًا يعلمه بشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر: لا تقسمها وذرها يكون خراجهم فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم، فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر كلها صلحًا بفريضة الجزية دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم أكثر من دينارين، إلا أنه يُلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع، إلا أهل الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى وليهم؛ لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة.

وكانت قرى بلهيب وسلطيس وغيرها قد ظاهرت الروم على المسلمين، فلما غلبهم المسلمون قالوا: هؤلاء لنا مع الإسكندرية، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر أن يخيرهم، فإن دخلوا الإسلام فذاك، وإن كرهوا فارددهم إلى قراهم، ويقال إنما ردهم عمر بن الخطاب لعهد سابق كان لهم.

وكان تمام فتح مصر عام ٢١ هـ، وأسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ولاية مصر، فبنى بها الفسطاط واتخذها العاصمة.

- **فتح مصر بين الصلح والعنوة:**

سئل شيخ من قدماء أهل مصر فقيل له: إن ناسًا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد، فقال: لا يبالي ألا يصلي من قال إنه ليس لهم عهد[٢٤]. فقيل له: فهل كان لهم كتاب؟ فقال: نعم، كتب ثلاثة: كتاب عند طَلْما صاحب إخنا، وكتاب عند قُزْمان صاحب رشيد، وكتاب عند يُحَنَّس صاحب البرلس. فقيل له: كيف كان صلحهم؟ قال: دينارين على كل إنسان جزية، وأرزاق للمسلمين. فقيل له: أفتعلم ما كان من الشروط؟ قال: نعم، ستة شروط: لا يُخرَجون من ديارهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم ولا أراضيهم ولا نسائهم، ولا يزاد عليهم في الجزية، ولا يكلفون غير طاقتهم، وأن يُدافَع عنهم ويُقاتَل عدوهم.

وقال آخرون: بل فتحت مصر عنوة بلا عهد ولا عقد، وعن زيد بن أسلم أنه قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد.

ويروى أن الليث بن سعد (من أشهر فقهاء مصر) اشترى شيئًا من أرض مصر؛ لأنه كان يقول بأن مصر فتحت صلحًا، وكان مالك بن أنس (إمام المدينة المنورة) ينكر على الليث ذلك، وكذلك أنكر عليه آخرون كانوا يرون أن مصر فتحت عنوة.

هذا، وأرجح الأقوال أن مصر فتحت بعضها صلحًا بعهد وذمة، وبعضها عنوة

- **انتقاض الإسكندرية:**

[٢٤] أي أن من يقول هذا يكون على درجة من النفاق حتى أنه لا يبالي بترك الصلاة.

في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه انتقضت الإسكندرية، وجاءتها جموع الروم بقيادة منويل في المراكب، وظاهرهم من كان بالإسكندرية من الروم. وكان عثمان بن عفان قد عزل عمرو بن العاص من ولاية مصر وولاها عبد الله بن سعد، فلما نزلت الروم بالإسكندرية سأله أهل مصر أن يولي عمرو بن العاص لأنه له معرفة بالحرب ومهابة في قلب العدو الرومي، فولاه على مصر.

فخرج إليهم عمرو في البر والبحر، وقد انضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط، ولم يطعه أحد من الروم. وفضل عمرو بن العاص عدم السير إلى الروم، بل يتركهم يسيرون إليه حتى تضعفهم المقاومة التي يجدونها في الطريق. فخرجوا من الإسكندرية وانضم إليهم من نقض العهد من أهل القرى، وكانوا ينتهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نَقْيوس فالتقوا برًا وبحرًا، وكان النصر في البداية لصالح الروم، ثم اشتد عليهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية ثم فتح الله عليهم وقتل قائدهم منويل. وقد قتلهم عمرو بن العاص حتى أمعن في مدينتهم، فكلمه البعض في ذلك، فأمر برفع السيف عن الروم، وفي هذا الموضع بني مسجد (الرحمة) بالإسكندرية، وسمي بذلك لأن عَمرًا رحم فيه الروم ورفع عنهم السيف. وقد هدم عمرو سور الإسكندرية بعد ذلك.

وجاء إلى عمرو بن العاص أهل القرى التي نهبها الروم فرد إليهم أموالهم، وعاتبه بعضهم في أنه ترك الروم حتى تسير إليه ولم يدافع عن أهل تلك القرى لأنهم في ذمته ولم ينقضوا العهد، فندم عمرو وقال: ياليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

وكان هذا الفتح الثاني للإسكندرية سنة خمس وعشرين من الهجرة، بينما كان الفتح الأول سنة إحدى وعشرين. وبقي عمرو بن العاص بعد ذلك على ولاية مصر شهرًا،

ثم عزله عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد، وذلك بعد أن عرض عليه أن يكون هو على الحرب ويكون عبد الله بن سعد على الخراج فرفض عمرو ذلك.

# الباب الثالث

# آثار الفتح الإسلامي لمصر

## الفصل الأول: في الآثار الحضارية والعمرانية

قام المسلمون ببناء العديد من المدن والمعالم الحضارية في مصر بعد دخولها، من أهمها:

### الفسطاط:

هي موضع حصن "باب اليون"، وقيل إنما سميت الفسطاط[٢٥] لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد أفرخ[٢٦]، فتركه عمرو كما هو وأوصى به.

وكان عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى أنها تامة البناء، همَّ أن يسكنها وتكون له عاصمة، فكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فسأل عمر رسول عمرو وقال: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل. فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أحب أن تُنْزِل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط.

### *تسمية الفسطاط:*[٢٧]

هناك رأيان في سبب التسمية:

---

[٢٥] الفسطاط: بيت من الشعر.
[٢٦] أفرخ الطائر: صار له فرخ.
[٢٧] تاريخ مصر الإسلامية (الجزء الأول) – د/ جمال الدين الشيال – دار المعارف (١٩٦٧)

- الأول: وهو رأي مؤرخي العرب والذي يعتمد على قصة اليمامة. غير أن هذا الرأي مشكوك في صحته؛ نظرًا لأن الطير يفضل الأماكن المنعزلة لبناء العش، فكيف تقيم تلك اليمامة عشًا في معسكر دائم النشاط والحركة. كما أن شكل الخيمة غير ملائم لبناء العش. كذلك يقال إن عمرو بن العاص أمر بالمحافظة على الخيمة عندما أراد الرحيل ووجد عش اليمامة عليها، ولا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقي على عهده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه.
- الثاني: وهو رأي مؤرخي الفرنجة، وهو أن كلمة الفسطاط مأخوذة من الكلمة الإغريقية Fossatum أي المدينة، وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم في حروب الشام، وهذا القول أيضًا مردود؛ لوجود نصوص عربية وحديث نبوي شريف وردت بها كلمة (فسطاط) قبل أن تحدث حروب الشام.

والرأي الراجح هو أن العرب لما سموا هذا المكان الفسطاط لا يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم؛ حيث إن كلمة فسطاط في القاموس المحيط تعني مجتمع أهل الكوْرة، والكَوْرة هي الصقع أو المدينة، فالمعنى بذلك يكون: الفسطاط أي مجتمع أهل المدينة.

### بناء المسجد الجامع:

بنى عمرو بن العاص المسجد عام ٢١ هـ، وهو أول مسجد بني في أفريقيا كلها، وهو الكائن بحي مصر القديمة حاليًا. كان المسجد الجامع، وهو أهم مباني الفسطاط، ذا سقف منخفض وليس به نوافذ أو فراغ في السقف حتى يتخلله الهواء، ولم يكن له صحن وكان الناس يصلون بفنائه.

وكان حول المسجد حدائق وأعنابًا، فنصب المسلمون الحبال وبنوا المسجد، وقام عمرو بن العاص وأصحاب رسول الله ﷺ بوضع القبلة، واتخذ عمرو فيها منبرًا، ولما علم عمر بن الخطاب بأمر المنبر كتب إلى عمرو بن العاص يقول: أما بعد، فإنه بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى به على رقاب المسلمين، أَوَما بحَسْبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لَمَّا كسرته.

وكان مؤذن المسجد هو أبا مسلم الغافِقي، من صحابة رسول الله ﷺ.

## دار البرْكة:

اختطها عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب لتكون له دارًا إذا نزل مصر، وكتب إليه يقول: إنا قد اختططنا لك دارًا عند المسجد الجامع. فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أنَّى رجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟!! وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين، فكانت سوقًا يباع فيه الرقيق.

هذا، وقد دخل مصر أثناء الفتح وبعده الكثير من الصحابة، وقد اختط العديد منهم بمصر خططًا ودورًا في مختلف أنحاء مصر. وأما الإسكندرية فلم يكن بها خطط، وإنما كانت أخائذ؛ من أخذ منزلاً نزل فيه. وقد روى العديد منهم لأهل مصر أحاديث عن رسول الله ﷺ، ولعل عبد الله بن عمرو بن العاص من أكثرهم رواية، إذ رُوِيَ عن أهل مصر عنه عن النبي ﷺ قريب من مائة حديث.

وقد أعاد عمرو بن العاص حفر القناة التي بين النيل والبحر الأحمر، والتي أطلق عليها "خليج أمير المؤمنين".

## تخطيط المدينة:

كان أول ما عني به عمرو بن العاص بعد أن خضعت له مصر أن بدأ يشيد مسجده الجامع في الفسطاط، وبنى في شرق المسجد دارًا خاصة لسكنه كانت تعرف بعد ذلك باسم "دار عمرو الكبرى"، وكان مدخله إليها من بابها القبلي الذي في زقاق القناديل، أعمر الأزقة في الفسطاط. كما بنى عبد الله بن عمرو بن العاص دارًا ملاصقة لدار أبيه، عرفت باسم "دار عمرو الصغرى".

وقد اختطت القبائل العربية حول المسجد الجامع ودار عمرو، واختار عمرو أربعة نفر يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط بين القبائل حتى لا ينشب بينها نزاع، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل، وذلك عام ٢١ هـ.

وقد استحبت بعض القبائل الجيزة، فكتب عمرو يستفتي عمر في ذلك، فأرسل إليه عمر: "كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدري ما يفجؤهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا وأعجبهم موضعهم فابنِ عليهم من فيء المسلمين حصنًا".

ولما أبلغهم عمرو أوامر الخليفة رفضوا أن يغيروا موضعهم، فبنى لهم عمرو الحصن الذي في الجيزة، وفرغ من بنائه عام ٢٢ هـ. ونزلوا في الجيزة واختطت كل قبيلة لنفسها وتركوا فضاءً بين كل قبيلة وأخرى، فلما كثر الناس وقدمت الأمداد في عهد عثمان بن عفان كثر البنيان والتأمت خطط الجيزة.

وقد شيدت الفسطاط على طراز المدن التي في جنوب جزيرة العرب مثل صنعاء، ومن هذا الطراز أيضًا كانت مكة، وكان من البديهي أن تشيد الفسطاط على هذا الطراز العربي؛ لأن معظم جيش عمرو الذي فتح مصر كان يتكون من قبائل يمنية. وهذا الطراز هو أبسط الطرز

العربية، فهو مجرد تخطيط بسيط لمدينة بحيث ينزل كل قوم من قبيلة في مكان خاص بهم، وسميت هذه المنازل في الفسطاط بالخطط.

وإذ كان العرب أمة بدوية تعتمد الاعتماد كله في الحرب والمعيشة والانتقال على الدواب من خيل وجمال، فقد تركوا حين اختطوا المدينة بينهم وبين البحر والحصن فضاءً لتفريق دوابهم وتأديبها، فلم يزل الأمر كذلك حتى تولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان، فأقطع للناس في هذا الفضاء وبنى به الدور. كما كان أمام دار عمرو الكبرى موقف لدواب الجند. وكان يفصل بين المنازل أنواع من الطرق المختلفة الاتساع والامتداد، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم حارة أو درب أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التي نزلت بها، أو كبار العرب الذين سكنوها، أو بأسماء الحرف والصناعات، أو أنواع التجارة، ... إلخ.

ولم تكن هذه الطرق ممهدة أو مغطاة بالبلاط أو أي مادة أخرى، ولم يكن يحيط بالفسطاط سور في أول أمرها، وإن كان بها من ناحية خط الحمراء القصوى، وكان عليه برجان يمنةً ويسرة. وفي عهد صلاح الدين الأيوبي بني السور الكبير الذي كان يحيط بالقاهرة والفسطاط وما بينهما.

وكانت المباني الأولى في الفسطاط غاية في البساطة، وكلها من الطوب اللبن. وكانت الدور وقت إنشاء المدينة كلها من طابق واحد، وأول من بنى غرفة فوق الطابق الأول هو خارجة بن حُذافة، فكتب عمر إلى عمرو: "أن ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرًا وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن اطلع من كواها فاهدمها"، ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكُوَى فأقرها. ومن هنا نعرف أن العرب لم يجعلوا لمنازلهم الأولى نوافذ، بل اتخذوا فيها كُوَى، وكانت هذه الكُوَى مرتفعة تقرب من السقف.

لم تلبث المدينة بهذا الشكل البسيط طويلاً، فقد كثر سكانها وعلت منازلها.

## مدينة العسكر:

ظلت الفسطاط العاصمة الوحيدة لمصر مدة ١١٣ عامًا وسبعة أشهر، تولى حكم مصر فيها ٢٩ حاكمًا، أولهم عمرو بن العاص، وآخرهم صالح بن علي العباسي في عهد الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، ومن بعده بنيت العاصمة الجديدة "العسكر".

بعد انتقال الخلافة من الدولة الأموية إلى الدولة العباسية كره ولاة العباسيين في مصر أن ينزلوا بالعاصمة القديمة الفسطاط، وقد يكون ذلك لأن الحريق الذي أشعله بها آخر خلفاء بني أمية عندما فر هاربًا إليها قد خرب دار الإمارة بالفسطاط وجزءًا كبيرًا من المدينة، أو لأن الفسطاط ضاقت بعساكر العباسيين، أو لمجرد أن الدولة الجديدة أرادت أن تتخذ لها عاصمة جديدة.

وقد بنى المدينة الجديدة القائدان العباسيان صالح بن علي وأبو عون، حيث نزلا بعساكرهما في الشمال الشرقي للفسطاط؛ ولذلك سميت بالعسكر أو المعسكر، وكان هذا المكان يعرف عند تأسيس الفسطاط باسم "الحمراء القصوى". وفي عام ١٣٣ هـ أمر (أبو عون) والي مصر أصحابه بالبناء فيها.

والعسكر هي المنطقة التي يحدها جنوبًا كوم الجارح، وشمالاً شارع مراسينا، وغربًا بين شارع السد والديورة. وكانت تمتد على شاطيء النيل؛ لأن النيل كان في ذلك الوقت أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص، ثم ابتعد عنه على توالي الزمن نحو خمسمائة متر.

وقد بنيت في العسكر بعد ذلك دار الإمارة، ومسجد جامع عرف باسم جامع العسكر، ودار للشرطة سميت باسم "الشرطة العليا" تمييزًا لها عن الشرطة السفلى بالفسطاط. وصارت مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة.

وفي هذه المدينة أيضًا بنى أحمد بن طولون فيما بعد بيمارستانه، وبنى بها أيضًا كافور الإخشيدي دارًا لسكنه. وسكن العسكر خمسة وستون واليًا في عهد الدولة العباسية لمدة ١١٨ عامًا، حتى تولى أحمد بن طولون فأنشأ مدينة جديدة هي القطائع. ولكن بانتهاء الدولة الطولونية عاد الولاة إلى دار الإمارة في العسكر، إلى أن قدم القائد جوهر الصقيلي وبنى القاهرة، فنزل الفاطميون في القصر الكبير بالقاهرة.

### مدينة القطائع:

لما ولي أحمد بن طولون حكم مصر اتخذ لنفسه جيشًا كبيرًا يتكون من عناصر أجنبية من الروم والأتراك والسودان، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر، فبنى لهم عاصمة جديدة في الفضاء الذي بين العسكر وجبل المقطم، وكانت قبل ذلك مقابر قديمة لليهود والنصارى فأمر بحرقها.

وفيها بنى قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه عندما ضاق بجنده وحاشيته جامعا الفسطاط والعسكر. وبجوار المسجد بنى دارًا جديدة للإمارة في جهته القبلية، وجعل بين القصر والمسجد ميدانًا كبيرًا لسباق الخيل وعرض الجند، واختط غلمانه وأتباعه لأنفسهم في المدينة الجديدة حتى اتصال البناء بالفسطاط.

وسميت بالقطائع لأنها قُطعت وقُسمت على الجند، وسميت كل قطعة باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة، وللسودان قطيعة، وللروم قطيعة، وهكذا. وبنى القادة فيها قصورهم، وتوسعت المدينة وكثرت بها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان، والطواحين والحمامات والأفران، وسميت أسواقها. وكان موقع القطائع من قبة الهواء التي بنيت مكانها قلعة الجبل إلى مسجد بن طولون وهذا طولها، أما عرضها فكان من الرميلة إلى ما يعرف الآن بحي زين العابدين.

ولما ضعفت الدولة الطولونية، دخل مصر القائد العباسي محمد بن سليمان عام ٢٩٢ هـ ـ ٩٠٤م، فأشعل النار في القطائع وعاث جنوده فسادًا فيها وفي الفسطاط. هذا، وقضت المجاعة العظمى التي حدثت في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر على البقية الباقية من القطائع والعسكر. ثم أقبل الناس على هذه الخرائب يأخذون من أنقاضها، وتحولت المساحة الكبيرة بين القاهرة والفسطاط فأصبحت بمر الزمان صحراء جرداء، وعاد للفسطاط مركزها القديم الممتاز.

## مدينة القاهرة:

عادت مصر بعد زوال الدولة الطولونية لتصبح تابعة للدولة العباسية، ثم استقل بها الإخشيديون بعد سنوات، وحكموها في المدة ٣٢٣ هـ إلى ٣٥٨ هـ. وفي السنة الأخيرة انتهى أمرهم إلى الضعف، ونجح الفاطميون في غزو مصر بعد محاولات كثيرة، فاستولى جوهر الصقيلي على الإسكندرية، ودخلت جيوشه الفسطاط في شعبان ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩ م) ثم عسكروا في السهل الرملي الواقع شمال المدينة، والذي يحده شرقًا جبل المقطم وغربًا خليج أمير المؤمنين.

وفي مساء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر الصقيلي أساس المدينة الجديدة ... القاهرة.

### *سبب التسمية بالقاهرة:*

جوهر لما أراد تأسيس العاصمة أحضر المنجمين وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسًا، وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة. وبينما العمال منتظرون إذ وقف غراب على أحد تلك الحبال، فتحركت الأجراس جميعًا، وبدأ العمال في البناء، فصاح المنجمون: لا، لا، القاهر في الطالع، فسميت المدينة بالقاهرة. والقاهر هو المريخ.

ولكن هذا الرأي أقرب إلى القصص الخيالية، ومما يؤكد ذلك أنها رويت في بعض المصادر منسوبة إلى الإسكندر عند بنائه الإسكندرية. والأرجح هو رأي المقريزي أن جوهرًا لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعساكره وقصد إلى مَناخه الذي رسمه له مولاه الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد، واستقرت به الدار، اختط القصر، وأصبح المصريون يهنئونه فوجدوه قد حفر الأساس في الليل، فأدار السور اللبن وسماها المنصورية، ولعله أراد بذلك أن يتقرب إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده الخليفة المنصور. ثم أرسل إلى المعز يدعوه إلى مصر، فلما أن قدم المعز من بلاد المغرب إلى مصر ونزل بها فسماها القاهرة؛ تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة القديمة وهي الخلافة العباسية، وقد اختار المعز هذه التسمية وهو مازال في المغرب، فقد روي أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة[٢٨]: "والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا". وسمى بابين من أبواب المدينة الجديدة باسمي: زويلة والفتوح، وهما اسمان لبابين بمدينة المنصورية في المغرب.

وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكنًا للخليفة وأتباعه، ومقرًا لدواوين الحكم. وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل المَناخ.

وفي يوم السبت لستٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو ٩٧٠ م) اختُطت القاهرة، فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها، وسميت خططها بالحارات، ومنها حارة زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة، وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة، وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة.

---

[٢٨] اسم قبيلة

وفي سبب اختيار جوهر لهذا المكان أنه رغب أن تصير حصنًا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر[٢٩] ليقاتلهم دونها، فأدار السور اللبن على مَناخه الذي نزل فيه بعساكره، وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصرًا، وأعدها معقلاً يتحصن به وتتنزل عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة.

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من اللبن، وكان له أبواب عدة في جهاته المختلفة. ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذي بني حول القاهرة، وإنما بني بعده سوران آخران، أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ليحيط بالزيادات التي أضيفت إلى القاهرة. وبنى السور الثاني صلاح الدين يوسف بن أيوب، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير الخليفة الفاطمي العاضد، وكان من الحجر ويضم داخله مدينتي القاهرة ومصر. وكانت القاهرة في العصر الفاطمي ضاحية ملوكية، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده وخواصه. وكانت القاهرة رابعة العواصم المصرية في العصر الإسلامي.

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولي حكم مصر السلطان صلاح الدين جعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة، وأسكن في بعضها، وتهدم البعض وأزيلت معالمه، فصارت خططًا وشوارع وحارات ومسالك وأزقة، ونزل السلطان صلاح الدين في دار الوزارة الكبرى.

## الجيزة:

كانت ضاحية من ضواحي الفسطاط في الجهة الغربية، وقد بنى عمرو بن العاص فيها حصنًا في الجانب الغربي من النيل لبعض القبائل التي نزلت فيها، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وانضم إلى تلك القبائل في فترات مختلفة العرب الذين وفدوا على مصر ممن ينتمون

٢٩ مدينة مصر: أطلق قديمًا على موقع الفسطاط.

إلى هذه القبائل. وبنيت فيها المساجد وأهمها مسجد هَمَدان والمسجد الجامع الذي بناه محمد بن عبد الله الخازن عام ٣٥٠ هـ بأمر من الأمير على بن الإخشيد، ثم انتقل إليها الناس بعد ازدحام الفسطاط. وكانت بها أبنية جليلة ومساكن، وكان لها في كل يوم أحد سوق عظيم يجيء إليه من النواحي أصناف كثيرة ويجتمع فيه عالم عظيم.

## جزيرة الروضة:

وهي على الضفة الغربية للنيل في مقابلة الفسطاط، يفصلها الماء عن الفسطاط من ناحية، وعن الجيزة من ناحية أخرى. وكان عليها حصن روماني قديم يعتبر ملحقًا لحصن باب اليون، وقد خرب عمرو بن العاص بعض أبراج هذه الجزيرة وأسوارها. وكان يربطها بالفسطاط جسر، وكان يربطها بالجيزة جسر، وكان هذان الجسران من مراكب وسفن مصطفة بحذاء بعضها البعض، ومن فوقها أخشاب ممتدة فوقها تراب.

وكانت تعرف في العصر الإسلامي الأول باسم الجزيرة أو جزيرة مصر، ثم بنى عليها أحمد بن طولون حصنًا، فعرفت بجزيرة الحصن، كما كانت تسمى بجزيرة الصناعة لوجود دار الصناعة بها. وفي العصر الإخشيدي نقل محمد بن طغج الإخشيد دار الصناعة إلى ساحل الفسطاط، وأنشأ بالجزيرة بستانًا سماه (المختار). وفي العصر الفاطمي أنشأ بها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي حدائق ومتنزهات وسماها (الروضة).

هكذا ظلت الجزيرة قرونًا طويلة ضاحية ملكية يبني فيها الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم وبساتينهم. وزادت أهميتها بعد بناء مقياس النيل الذي بناه أسامة بن زيد التنوخي عام ٩٧ هـ بأمر سليمان بن عبد الملك الأموي؛ ولذلك تعرف أيضًا باسم (جزيرة المقياس). وفي أواخر العصر الأيوبي بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة في هذه الجزيرة أسكنها مماليكه البحرية وذلك عام ٦٣٨ هـ، وقد بقيت هذه القلعة تعرف باسم قلعة المقياس أو قلعة الروضة

أو قلعة الجزيرة أو قلعة الصالحية، حتى هدمها المعز أيبك وبنى مكانها مدرسته المعزية بالفسطاط.

وكان بها أبنية حسنة ومساكن جليلة وبساتين وعمائر وثمار ومتنزهات.

## الجامع الأزهر:

كانت السياسة للدول الإسلامية تقضي بأن ينشأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع، وترجع هذه السياسة إلى عهد عمر بن الخطاب، فقد كتب إلى ولاته على الأقاليم المفتوحة ـ ومنهم عمرو بن العاص ـ أن يتخذ كل منهم في عاصمته مسجدًا للجماعة. واتباعًا لهذه السياسة بنى عمرو بن العاص مسجده في الفسطاط، ولما أنشئت العسكر في أول العصر العباسي بني فيها المسجد الجامع، وعندما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك.

وكانت هذه المساجد رمزًا لنصر المسلمين ومركزًا للدعوة الدينية، وتقام فيها الصلاة، وكان يؤم الناس في الصلاة ولاة مصر، فقد كان الغرض الأساسي من الفتوح الإسلامية نشر الدين الجديد؛ لذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى، فكان الوالي على مصر يجمع بين الولايات على صلاتها وخراجها أو يكتفي بولايته على الصلاة ويعين إلى جانبه واليًا آخر على الخراج.

وكان المسجد أيضًا مقرًا لدواوين الحكم ومجلسًا للقضاة، ومعاهد لنشر العلم ومنبرًا لإذاعة الأوامر الحكومية.

بني الجامع الأزهر وفي مصر مسجدان جامعان: جامع عمرو بن العاص، وجامع أحمد بن طولون، لأن جامع العسكر كان قد تهدم وزالت معالمه. وقصد الفاطميون ببنائه أن يكون مصلىً للخليفة وجنوده، وأن يكون مسجدًا جامعًا للعاصمة الجديدة، وأن يكون مركزًا لنشر الدعوة الشيعية، وأن يكون رمزًا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية. بُدِئَ في إنشاء الجامع

الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م)، وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر، وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان عام ٣٦١ هـ (٩٧٢ م).

وسمي الجامع عند إنشائه جامع القاهرة، وظلت هذه التسمية غالبة عليه طول العصر الفاطمي، ولم يُسَمَّ بالجامع الأزهر إلا في تاريخ متأخر، والدليل على ذلك أن معظم مؤرخي العصر الفاطمي يذكرون هذا المسجد دائمًا باسم جامع القاهرة، وقلما يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر.

ويرى البعض أن هذا المسجد سمي بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر. ويرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء لقب السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ وزوج علي بن أبي طالب، وإليها تنسب الدولة وباسمها تسمى.

ولبث الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعًا ورعايتهم، فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتزيينه حتى زالت الدولة وبدأت في مصر دولة صلاح الدين، وهي دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعي، فأهمِل الجامع الأزهر؛ لأنه كان المركز الرئيسي لنشر الدعوة الشيعية، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد صلاح الدين؛ فقد كان شافعي المذهب، والمذهب الشافعي يمنع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد. وظل الأزهر معطلاً عن إقامة الجمعة فيه مائة عام، إلى أن ولي عرش مصر الظاهر بيبرس، فعادت للأزهر أهميته وأعيدت خطبة الجمعة فيه، وعني به كثيرًا في عصر المماليك والعصور اللاحقة إلى اليوم.

كان للأزهر عند إنشائه الصفة الدينية الرسمية، ولكنه لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هي الصفة العلمية التعليمية، وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم الجديد بواسطة دروس

تلقى في حلقاته، وكانت أولى حلقاته التي عقدها علي بن النعمان القاضي في صفر عام ٣٦٥هـ. ويعتبر الوزير يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهدًا للدراسة المنتظمة، ففي عام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن الوزير بن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أي الطلاب) للدرس والقراءة في أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم في الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيهًا، فرتب لهم العزيز أرزاقًا وجرايات شهرية، وبنى لهم دارًا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر. فمنذ ذلك التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعية، فعُين له طلبة متفرقون للدراسة، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق.

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمي، فزاد عدد طلابه وأساتذته، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه، ونمت الدراسة وازدهرت، حتى بدأ يجتذب إليه الطلاب والعلماء من خارج مصر. وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتًا ما في العصر الأيوبي، ولكنها لم تلبث أن عادت إليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه منذ عهد الظاهر بيبرس وما تلاه من عصور، ساعد على ذلك أن غزوات المغول في المشرق قضت على معظم المدارس فيه، وأن معاهد العلم والمساجد الإسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى أمرها أيضًا إلى الضعف، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب إلى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ، فأصبحت القاهرة مركز العالم الإسلامي، وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جهات العالم الإسلامي.

## دُور الصناعة:

- **الإسكندرية:**

حرص البطالمة على إنشاء دار كبرى لصناعة السفن التجارية والبحرية بها، وقد تجدد بناء دار الصناعة البحرية في الإسكندرية في عهد الإمبراطور إنستاسيوس. وظلت دار صناعة الإسكندرية تنشيء القطائع البحرية بعد أن دخلت مصر في فلك الإسلام، بفضل خبرات الصناع الأقباط ومهارتهم. وقد اشترك الأسطول المصري مع الأسطول الشامي في غزوة قبرص، وفي معركة ذات الصواري. وكان أمراء البحر يخرجون من ثغر الإسكندرية للغزو كما حدث عام ٤٧ هـ في غزوة جزيرة رودس. وتولى الأسطول المصري السكندري أيضًا عبء غزو جزر البحر المتوسط الغربي إلى أن تمكنت دار صناعة تونس من إنتاج ما يكفيها من السفن، واعتمد عليه الفاتحون العرب للمغرب في عملياتهم الحربية.

- **دار صناعة الروضة:**

هي أول دار صناعة أنشئت في النيل عقب الفتح الإسلامي لمصر، وكانت تسمى في باديء الأمر بدار صناعة الجزيرة، ثم سميت بصناعة الروضة في العصر الفاطمي، نسبةً إلى البستان الذي أنشأه في شمال الجزيرة الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عام ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) وسماه الروضة. وهذه الجزيرة تقع في النيل ويواجه طرفها الشمالي ما يسمى الآن (جاردن سيتي)، والطرف الجنوبي أمام مصر القديمة. وظلت صناعة هذه الجزيرة تعمل منذ الفتح الإسلامي إلى أن حولها محمد بن طغج الإخشيد إلى ساحل النيل بالفسطاط وجعل موضعها بستانًا سماه المختار.

- **دار صناعة الفسطاط:**

أنشأها محمد بن طغج الإخشيد عام ٩٣٦ م بساحل مصر القديمة، وظلت تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك، فقد أنشأ بها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي مراكب

منفصلة وحملها على الجمال من القاهرة لمحاربة قلعة أيلة (مكانها اليوم العقبة الأردنية وإيلات)، وكانت قد ملكها الإفرنج، فقاتل في البحر حتى فتح أيلة. وقد قامت هذه المدينة الصناعية بإنشاء السفن والحراريق التي نقلت الأمراء والجنود إلى اليمن على عهد صلاح الدين. ولم تقتصر هذه الصناعة على إنشاء مراكب الغزو في البحر الأحمر أو النيل، بل أمدت صلاح الدين أيضًا بأساطيل البحر المتوسط أثناء جهاده للصليبيين في الشام، فكانت هذه المراكب بعد إتمام إنشائها في مصر تشحن بآلات الحرب والمقاتلة ثم تقلع في النيل إلى الثغور الشمالية كالإسكندرية حيث تمر من هناك إلى جهاد أعداء الدين من الروم أو الفرنج في البحر المتوسط.

- **دار صناعة المقس:**

أنشأها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وظلت تعمل حتى بداية العصر الأيوبي حينما أخذ ماء النيل ينحسر غربًا عن ساحل المقس وعن سور القاهرة الذي ينتهي عند المقس، فامتلأت المنطقة بالرمال وظهرت الجزر التي أخذت تزداد سنةً بعد أخرى، حتى أصبح النيل لا يمر بهذه المنطقة إلا في أيام الفيضان.

- **دار صناعة بولاق:**

صارت بولاق قاعدة لصناعة السفن منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وفي سنة ٧٥٧ هـ هبت عاصفة شديدة أغرقت نحو ثلاثمائة مركب عند ساحل بولاق. وازدهرت هذه الدار بوجه خاص في عصر دولة المماليك الجراكسة. وقد استمرت تعمل إلى ما بعد انتهاء دولة المماليك في مصر بوقت طويل.

## الفصل الثاني: في الآثار الإنسانية

يستطيع القاريء لأخبار الفتح الإسلامي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقفًا محايدًا وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب؛ لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة.

لقد كانت معاملة المسلمين لأهل مصر (القبط) معاملة حسنة، وظهر أثرها في معاونة القبط للمسلمين في حربهم ضد الروم ـ كما سبق ـ أثناء الفتح الإسلامي لمصر. وبعد استقرار الحكم الإسلامي بمصر ظلت المعاملة الحسنة قائمة، تتجلى فيها عدالة الإسلام وعدم تفضيله لمن ارتكب جرمًا وإن كان مسلمًا على صاحب الحق وإن كان على غير دين الإسلام.

ومن المواقف المضيئة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب أثناء ولاية عمرو بن العاص على مصر في عهده نذكر المواقف التالية:

- الموقف الأول: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يسأله عن عبدٍ وجد جرة من ذهب مدفونة، فكتب إليه عمر أن ارضخ له منها بشيء، فإنه أحرى أن يؤدوا ما وجدوا. أي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل لذلك العبد نصيبًا مما عثر عليه، وبذلك تطيب نفسه ولا يجد في داخله شعورًا بالقهر أو الهضم لحقه، وكانت حكمة عمر بن الخطاب في ذلك أن يكون عونًا للناس على أن يؤدوا إلى ولاة أمورهم ما يجدون.
- الموقف الثاني: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يسأله عن رجل أسلم ثم كفر، ثم أسلم ثم كفر، حتى فعل ذلك مرارًا، أيُقبل منه الإسلام؟ فكتب إليه عمر: أن اقبل منه أي اعرض عليه الإسلام، فإن قبل فاتركه، وإلا فاضرب عنقه. أراد أمير المؤمنين أن يستتيب الرجل، فإن رجع عن فعله، وإلا أقيم عليه حد الردة.

- الموقف الثالث: قال عمرو بن العاص لرجل من تجيب[30]: يا منافق، فقال الرجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، إن عَمرًا نفَّقني، ولا والله ما نافقت منذ أسلمت. فكتب عمر رضي الله عنه إلى عمرو: إلى العاصي بن العاص، أما بعد: فإن فلانًا التجبي[31] ذكر أنك نفَّقته، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين، فقام الرجل فقال: أنشد الله رجلاً سمع عَمرًا نفَّقني إلا قام فشهد، فقام عامة من في المسجد، فقال له أحدهم: أتريد أن تضرب الأمير؟ وعرض عليه الدية، فلم يقبل، فقال له: أتريد أن تضربه؟ فقال الرجل التجبي: ما أرى لعمر هاهنا طاعة، ثم ولى، فقال عمرو: ردوه، فمكنه من السَوْط وجلس بين يديه، فقال له التجبي: أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك؟ قال عمرو: لا، فامضِ لما أُمِرت به، قال الرجل: فإني قد عفوت عنك.

ما أعظم عدلك يا بن الخطاب، يقتص من الوالي لأحد الرعية. لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخشى في الله لومة لائم.

- الموقف الرابع: جاء عمرَ بن الخطاب رجلٌ من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مَقام العائذ بك. قال: ومالك؟ قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسَوْط ويقول: أنا ابن الأكْرَمَيْن. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السَوْط فاضرب، فجعل يضربه بالسَوْط ويقول عمر: اضرب ابن الألْيَمَيْن[32]، فضرب، فلما انتهى قال له عمر: ضع على صِلْعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني، فقال عمر بن الخطاب لعمرو: أيا عمرو، متى استعبدتم الناس

[30] إحدى القبائل
[31] نسبةً إلى قبيلة تجيب
[32] أي: الألأمين

وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني. ثم التفت عمر إلى المصري فقال: انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب لي.

ومن مواقف عدل القضاة: عندما كان أبو عون القائد العباسي واليًا على مصر، أسند القضاء إلى أبي خُزَيْمة إبراهيم بن يزيد الثاني، وكان رجل اسمه أبو خَرَشة المرادي صديقًا لأبي خُزَيْمة، فمر به ذات يوم فسلم عليه، فلم ير منه في رد السلام ما كان يعرف من وده. وكان أبو خَرَشة قد خاصمه رجل في جدار، فاشتد ذلك على أبي خَرَشة، فشكا إلى بعض قرابته، فقال له: إن اليوم يوم الخميس، وأبو خُزَيْمة صائم، فإذا صلى المغرب ودخل منزله فاستئذن عليه، ففعل أبو خَرَشة، فسلم عليه فرد عليه كما كان يعرف، وقال له: ما جاء بك؟ فأخبره أبو خَرَشة بما كان منه من قبل في رد السلام، فقال أبو خُزَيْمة: ما كان ذلك إلا أن خصمك كان حاضرًا وخفت أن يرى سلامي عليك فيكسره ذلك عن بعض حجته، فقال أبو خَرَشة: فإني أشهدك أن الجدار له.

## تكوين الشعب المصري الجديد:

كان الأقباط أكثرية وقت الفتح، فقد كانت أرض مصر لما دخلها المسلمون مشحونة بالنصارى، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم: أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي. والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره، وكلهم يعاقبة، فمنهم كُتاب المملكة، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وبينهم وبين الملكية (أهل الدولة) من العداوة ما يمنع مناكحتهم ويوجب قبل بعضهم بعضًا.

وقد درات الحروب بين العرب والروم وقت الفتح، أما القبط فكانوا عونًا للعرب. وبعد الفتح كتب عمرو أمانًا لبنيامين بطرك الأقباط، فخرج من مخبئه في الصحراء وعاد إلى كرسي بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر عامًا، واعتبر الأقباط أهل ذمة، وفرض على كل من بلغ الحلم دينارين، ويستثنى منهم النساء والصبية والشيوخ. وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أي شكوى نحو قرن من الزمان، فلما فكر بعض ولاة مصر في زيادة مقدار الضريبة ولو بزيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف. وكان من أهم نتائج هذه الثورات جميعًا أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة - رغبةً أو رهبة.

وكان من الطبيعي أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم. وظل انتشار اللغة العربية بطيئًا طوال القرن الأول للهجرة، وقبيل نهايته وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، أمر بالدواوين فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، ويقال باليونانية.

ففي القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية، ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م)، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م)، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م)، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م).

ظل هذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حتى إذا كان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية، ولا يفهمون

القبطية، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية.

ليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تمامًا، بل لقد ظلت موجودة، بدليل أن الخليفة المأمون كان يتنقل في ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه، وكان بعض مسيحيي مصر يتحدثون بالقبطية، وقد تعلم بعض المسلمين القبطية في العهد الأول (عهد الاختلاط)، فقد كان القاضي خير بن نعم يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها، وكان والي الشرطة على الفسطاط عام ١٤٤ هـ يتكلم القبطية.

ويمكن تلخيص خطوات الاختلاط والتحول التي انتهت بتكوين الشعب المصري في العصر الإسلامي الأول في النقاط التالية:

١. امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩ إلى سنة ١٣٢ هـ. وقد استقرت الهجرات العربية الأولى في جهات أسفل الأرض (الوجه البحري)، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها وأثارت بعض القبائل الشغب (قبيلة بني هلال وبني سليم) نزلت إلى الوجه القبلي. وقبيل نهاية هذا القرن أيضًا (عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية.
٢. يمتاز القرن الثاني بثورات الأقباط المختلفة (من سنة ١٠٥ إلى ٢١٦ هـ)، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط في الإسلام.
٣. في القرن الثالث تم إسقاط العرب من ديوان الجند في عهد الخليفة العباسي المعتصم. ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي، واشتغل العرب بالزراعة وتزوجوا بالمصريات. ففي هذا القرن تم امتزاج الشعبين.

٤. لم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان في مصر شعب جديد هو خليط من الشعبين العربي والقبطي، يدين معظمه بالدين الإسلامي، ويتكلم السواد الأعظم منه ـ مسلمين وأقباطًا ـ باللغة العربية.

ويمكن تفسير اندماج الأقباط بالعرب واعتناقهم الإسلام بما يلي:

١. يقول ابن خلدون: "المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب"، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط في اعتناق الإسلام ـ دين الدولة والحكومة ـ وأن يتعلموا اللغة العربية ـ لغة الحكام ـ رغبةً في أن ترتفع مكانتهم ويسهل اتصالهم برجال الدولة ويتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من مركز مرموق. ولم يكتفِ نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية، بل تعالوا فادعوا النسب العربي، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب في وثائق رسمية.

٢. كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى في المدن وفي القرى، وقد أخذوا يدخلون في الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويدًا رويدًا، وخاصةً بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين في مصر باللغة العربية، وكان دافعهم الأكبر رغبتهم في الاحتفاظ بوظائفهم.

٣. ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط في الإسلام ـ طوعًا أو كرهًا ـ وخاصةً بعد الثورة الكبرى التي حدثت في عهد المأمون.

٤. اعتنق بعض الأقباط الإسلام فرارًا من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، وقد يؤيد هذا أن أول انتقاض للقبط في العهد الإسلامي (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطًا ... ولم يكد ينتهي القرن الأول للهجرة حتى أحس والي مصر ما لكثرة دخول الأقباط في الإسلام من أثر في نقص قيمة الخراج، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب بن

شرحبيل يشكو كثرة دخول الناس في الإسلام وأثر ذلك في نقص قيمة الخراج، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم، فرد عليه عمر رده المشهور: "قَبَّح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، فضع الجزية عمن أسلم، ولَعَمْري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه".

٥. كان دخول القبط في الإسلام دخولاً طبيعيًا يسير مع التطور المنطقي للأحداث والتاريخ في مصر بعد الفتح الإسلامي، وإن الدين الإسلامي ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه، يقول بهذا الرأي شاهد من أهل الديانة المسيحية وهو المؤرخ والمستشرق الإنجليزي المعروف "سير توماس أرنولد".

يقول سير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): "الحق أن كثيرًا من مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي ... كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الفتح الإسلامي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهليين إلى الإسلام. وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين حزبًا منفصلاً، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتًا طويلاً ودفعوا ثمنًا غاليًا في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية، ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا ـ وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم حولهم ـ إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد".

# الفصل الثالث: في الآثار الاستراتيجية

## استراتيجية فتح مصر:

كانت مصر هدية تستحق النضال من أجلها، فلقد وضعت الفتوحات العظيمة في سوريا وبلاد فارس المدينة المنورة كعاصمة في مكان لا يناسب لأنها تقع على حافة الإمبراطورية الجديدة. وكانت مصر البيزنطية تشكل خطرًا دائمًا وحتى المدينة المنورة كانت مهددة لقربها من مرسى الأسطول البيزنطي في القلزم (ميناء مصري قديم على الشاطيء الغربي للبحر الأحمر). ومصر الغنية بما تزوده من غلال كانت عرضًا حسنًا للمسلمين يفوق سوريا والعراق، وأثبتت ذلك الحركة التجارية المنتظمة في الغلال إلى الحجاز بعد الفتح الإسلامي مباشرةً. وزيادةً على ذلك فإن مصر مدخل سهل إلى الطريق المؤدي إلى شمال إفريقية.

## أسباب اختيار الفسطاط:

المكان الذي أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله مدينة (باب اليون) التي تمتد شمال حصن باب اليون، والتي كانت وقتئذ تعتبر العاصمة الثانية؛ وذلك لموضعها على رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلي والبحري، ولوقوعها على شاطيء النيل بحيث تكون سهلة الاتصال بواسطة النهر بكل أطراف القطر المصري، ولتوسطها بين النيل غربًا، وجبل المقطم شرقًا، وهو الحد الطبيعي لحمايتها؛ ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقرًا لحكمهم، فقد كانت كل من منف وهليوبوليس (عين شمس) حاضرةً لمصر مدة طويلة، وموقع الفسطاط (باب اليون) بين هاتين المدينتين.

من هذا نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان كان اختيارًا طبيعيًا، فبعد أن أمره عمر أن يتحول عن الإسكندرية كان لزامًا عليه أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وهي باب اليون.

## شق خليج أمير المؤمنين:

حدث في خلافة عمر بن الخطاب أن أصاب الناس بالمدينة المنورة جَهْد وبؤس شديد، وذلك في عام الرمادة[٣٣]، فكتب إلى عمرو بن العاص بمصر يقول: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص[٣٤] سلام، فلَعَمْري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه ثم يا غوثاه.

فكتب إليه عمرو بن العاص يقول: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد: فيا لبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله. فلما قدمت تلك العير على عمر وسع بها على الناس وقسمها عليهم.

وكان الطريق الذي يربط مصر بعاصمة الخلافة في المدينة المنورة طريقًا بريًا طويلاً، فأراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يربطها بحرًا، وذلك بإعادة شق القناة القديمة بين النيل وبحر القلزم (البحر الأحمر)، والذي عرف باسم خليج أمير المؤمنين.

وكتب إلى عمرو بن العاص ليقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر، فلما أتاه قال: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر؛ فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا يبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم.

فلما أخبر عمرو من كان معه من أهل مصر بذلك ثقل عليهم وقالوا: نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظِّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له أن هذا أمر لا يعتدل ولا

[٣٣] سمي بهذا الاسم لأن الأرض كلها كانت سوداء فشبهت بالرماد، وكان تسعة أشهر من الشدة والبؤس.
[٣٤] وكان يناديه بذلك إذا غضب عليه.

يكون ولا نجد له سبيلاً. فرجع عمرو إلى عمر وأخبره بذلك، فضحك عمر حين رآه وقال: والذي نفسي بيده لكأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل عليهم ذلك وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظِّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له أن هذا الأمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلاً. فعجب عمرو وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، فقال عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجدَّ في ذلك، ولا يأتي عليك الحَوْل حتى تفرغ منه إن شاء الله.

فانصرف عمرو وجمع الفَعَلَة ثم احتفر الخليج، فلم يأتِ الحَوْل حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، وسمي خليج أمير المؤمنين.

يقال إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر، وعافاه عمرو من الضرائب مكافأةً له. وبعد أشهر قليلة من العمل المتواصل حفرت القناة وسميت (خليج أمير المؤمنين).

ويروى أن عَمرًا فكر في ربط البحر الأحمر والمتوسط بواسطة قناة تبدأ عند بحيرة التمساح حتى يمكن عبور البرزخ بطريق مائي كما هو الآن، لكن عمر رفض هذا المشروع خشية أن يتمكن الرومان من الإبحار داخل البحر الأحمر ويوقفون حج الناس لبيت الله الحرام.

## فتح برقة وطرابلس:

سار عمرو بن العاص في خيله إلى برقة (وكان اسمها أنطابلس) فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ولم يكن يدخل برقة أحد لجباية الخراج، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها. ثم وجه عمرو بن العاص عقبةَ بن نافع حتى بلغ (زَوِيلة) فصار ما بين برقة وزَوِيلة للمسلمين.

ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس (أطرابلس) فحاصرها شهرًا لا يقدر منهم على شيء. وذات يوم خرج بضعة رجال من عسكر عمرو بن العاص فنظروا فإذا البحر المحيط

بالمدينة قد غاض في موضع منه، ووجدوا في ذلك الموضع مسلكًا فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة، فكبرَّوا وفر الروم في سفنهم وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم، فلم يفلت من الروم إلا من فر في السفن، وغنم عمرو ما كان في المدينة.

## رغبة عمرو بن العاص في فتح إفريقية:

كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب: إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل. فكتب إليه عمر: لا، إنها ليست بإفريقية، ولكنها مُفَرِّقة، غادرة مغدور بها[٣٥]، لا يغزوها أحد ما بقيت. وبذلك تم تأمين حدود مصر وحمايتها من مد الروم وعودتهم إليها.

## مصر بوابة نشر الإسلام والفتح في إفريقيا:

كان الفتح الإسلامي لمصر تأمينًا لحدود الخلافة الإسلامية، خاصةً بعد فتح الشام وتحريرها من أيدي الروم، فكانت مصر بمثابة البوابة الغربية لأرض الشام، وكان فتحها سدًا لمداخل الروم إلى الشام مرة أخرى. كما أنه بعد تمام الفتح الإسلامي لمصر امتدت جيوش الفاتحين غربًا إلى برقة وطرابلس لفتحها وتأمين المداخل إلى مصر غربًا.

توفي عمر بن الخطاب وعلى مصر أميران: عمرو بن العاص بأسفل مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح على الصعيد، فلما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة أراد عمرو بن العاص أن يعزل عبد الله بن سعد وينفرد بالولاية، فأبى عثمان ذلك، فغضب عمرو وقال: لست راجعًا إلا على ذلك، وكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بولاية مصر كلها، فعزل عَمرًا

[٣٥] غادرة لأن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئًا وكانوا كثيرًا ما يغدرون به، ومغدور بها لأن ملك الأندلس صالح أهلها ثم غدر بها.

من الولاية. وفي عهد عبد الله بن سعد كانت ثلاث غزوات عظيمة: فتح إفريقية، والأساود (النوبة)، وذي الصواري.

## فتح إفريقية[٣٦]:

كان عبد الله بن سعد يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون. فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان وأخبره بقربهم من حرز المسلمين، ويستأذنه في غزوها. فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك، فلما اجتمع الناس أرسلهم عثمان إلى عبد الله بن سعد في مصر، فخرج عبد الله بن سعد بهم إلى إفريقية.

وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ في مدينة قرطاجنَّه، وكان ملكها هو جُرْجير، كان هرقل قد استخلفه ولكنه خلع هرقل، وكان سلطانه ما بين أطرابلس إلى طنجة[٣٧].

ولما التقى الجيشان اقتتلا، فقُتل جُرْجير، وكان الذي ولي قتله هو عبد الله بن الزبير، وهرب جيش جُرْجير فبث عبد الله بن سعد السرايا وفرقها، فأصابوا غنائم كثيرة. فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالاً على أن يخرج من بلادهم، فقبل ذلك ورجع إلى مصر، ولم يُولِّ عليهم أحدًا، ولم يتخذ بها منزلاً. وبعث عبد الله بن سعد إلى عثمان بن عفان بالفتح عبد الله بن الزبير، وكان فتح إفريقية عام ٢٧ هـ.

---

[٣٦] من أولاد فارق بن بيصر بن نوح
[٣٧] مرفأ على مضيق جبل طارق في شمال المغرب

## غزو النوبة:

في عام ٣١ هـ غزا عبد الله بن سعد الأساود (النوبة) فقاتلته النوبة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، وقد صالحهم عبد الله بن سعد على هدنة بينهم على أنهم لا يغزونهم، ولا يغزو النوبة المسلمين، وأن النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين ثلاثمائة رأس من السبي، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح ومن العدس في كل سنة، ويدخلون مصر مجتازين غير مقيمين، وكذلك يدخل المسلمون بلادهم. وإن قتلوا من المسلمين قتيلاً فقد برئت منكم الهدنة، وإن آووا للمسلمين عبدًا فقد برئت منهم الهدنة، وعليهم رد أبّاق المسلمين ومن لجأ إليهم من أهل الذمة.

## نشأة البحرية الإسلامية[٣٨]:

يقترن تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام بحركة الفتوحات الإسلامية، فقد كان لزامًا على العرب بعد أن أصبحت لديهم سواحل متصلة تطل على البحر المتوسط أن ينتهجوا سياسة بحرية؛ لأن فتح مصر والشام أدى إلى تمزيق وحدة الإمبراطورية البيزنطية، وكان ذلك نذيرًا بقيام صراع بحري مرير بين القوى الإسلامية التي كانت تعتمد اعتمادًا تامًا على المعارك البرية، والقوى البيزنطية المتفوقة بحريًا.

وكانت سياسة العرب البحرية الدفاعية باديء الأمر بوسائل دفاعية برية مثل إقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل، واستخدام المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من الساحل. وهكذا أصبحت سواحل الشام ومصر مبثوثة بالقلاع والأبراج كما لو كانت سورًا يمتد بحذاء الساحل. وباستخدام تلك الوسائل البرية في الدفاع البحري انتصر المسلمون على الروم في الشام ٢٣ هـ، ومصر ٢٥ هـ (انتفاض الإسكندرية).

[٣٨] تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط – البحرية الإسلامية في مصر والشام (الجزء الأول)، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، د/ السيد عبد العزيز سالم – أستاذ التاريخ – جامعة الإسكندرية، د/ أحمد مختار العبادي – أستاذ التاريخ الإسلامي – جامعة الكويت.

في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه أخذ العرب في مجاراة البيزنطيين في اصطناع سياسة بحرية دفاعية وهجومية في آن واحد، وكان لزامًا عليهم أن ينشئوا الأساطيل البحرية.

لم يكن للعرب خبرة بحرية، ولا شك أن سبب ذلك يرجع إلى تعرض القسم الجنوبي من بلاد العرب ـ اليمن وحضرموت وعمان ـ زمنًا طويلاً لسيطرة الأحباش الذين استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الأحمر، ثم لسيطرة الفرس الذين قضوا على تجارة العرب في بحري عمان وفارس (الخليج العربي حاليًا)، واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند. هذا بالإضافة إلى الطبيعة الصحراوية للبلاد العربية وندرة الأشجار الصالحة لصناعة السفن، وعدم وجود الزفت والقطران ومعدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير والكلاليب، باستثناء اليمن حيث يوجد بها حديد، بالإضافة إلى صعوبة الملاحة في البحر الأحمر لكثرة الصخور والشعاب المرجانية. فاستعان العرب في ذلك بأهل البلاد المفتوحة، كأقباط مصر الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها، وملاحي الشام الذين كانت لهم تجارب بحرية واسعة في تاريخهم القديم. كما استعان معاوية بن أبي سفيان، والي الشام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، بالعناصر العربية اليمنية في تسيير السفن الإسلامية وقيادة العمليات البحرية في الشام؛ ذلك لتفوقهم في هذا المجال، والرباط والحراسة في سواحل مصر لا سيما الإسكندرية. المرحلة التالية لذلك هي تمكين الدفاع البحري بإنشاء مزيد من السفن في دور الصناعة، مثل دار صناعة الإسكندرية وعكا، وكان مورد الخشب في ذلك هو آسيا الصغرى كمورد جديد بخلاف جبال لبنان وأحراج مصر العليا.

## إنشاء الأسطول البحري الإسلامي:

يرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول البحري الإسلامي إلى معاوية بن أبي سفيان والي الشام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذي فطن إلى أهمية الأساطيل في الدفاع

عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بن أبي سفيان بغزو مدن الساحل؛ حيث تعرض لبعض المتاعب في فتح بعض تلك المدن. فلما توفي يزيد بن أبي سفيان في طاعون عمواس وآلت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذي كان يشاركه في فتوحه لمدن الساحل كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل، ويقترح عليه إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر، فرد عليه عمر يأمره بالتحصين البري وإقامة الحرس على مناظر الحصون واتخاذ المواقيد بها، ولم يأذن له في غزو البحر، وامتثل معاوية لأمر أمير المؤمنين.

وهكذا أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها حاميات تنقسم كل منها إلى عرافات (مجموعات) تتألف كل عرافة منها من مائة رجل، وكانت التحصينات مزودة بمواقيد في أعلاها توقد عند اقتراب سفن الأعداء ليلاً.

وعندما استُخلف عثمان بن عفان في المحرم ٢٤ هـ كتب إليه معاوية يستأذنه في غزوة قبرص، فلم يأذن له في ذلك وأمره بتحصين السواحل. وبعد تغلب المسلمين على الروم عند اعتدائهم على الشام والإسكندرية عام ٢٥ هـ عزم معاوية على السير في تنفيذ خطته لإعداد أسطول بحري، وكانت خطواته في تنفيذ ذلك هي:

١. استحضار الأخشاب من غابات الأرز بلبنان وإرسالها في سفن إلى دار الصناعة بالإسكندرية التي لم يكن بمصر سواها، ويبدو أن دار الصناعة بعكا كانت معطلة عند الفتح؛ ولهذا السبب نشطت دار الصناعة بالإسكندرية في إنشاء سفن الأسطول الشامي.
٢. استعان معاوية بجماعة من الملاحين العرب اليمنيين لإدارة العمليات البحرية.

بعد أن تم إعداد عدد من السفن أخذ معاوية يفكر جديًا في فتح طرابلس بالشام التي كانت قد استعصت على أخيه يزيد من قبل، ووجه لهذا الغرض القائد سفيان بن مجيب الأزدي، وحاصرت السفن الإسلامية طرابلس من البحر من جهة الميناء حتى تمنع وصول السفن

البيزنطية إليها. والظاهر أن السفن الإسلامية كانت قليلة العدد وملاصقة للساحل، إذ تمكن أهل طرابلس بعد أن اشتد عليهم الحصار من الاتصال بالروم ومطالبتهم بإرسال عدد من المراكب لتحملهم، فجاءت هذه المراكب فركبوها ليلاً وفروا، فلما أصبح سفيان وجد الحصن خاليًا فدخله. كان هذا الفتح عام ٢٦ هـ.

شجع فتح طرابلس معاوية بن أبي سفيان على الخروج لغزو قبرص، فكتب إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان عام ٢٧ هـ يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فأذن له بغزو الروم بحرًا في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كَرهًا. وعلى ساحل عكا رست السفن المعدة لنقل القوة العربية ثم أبحرت الحملة إلى قبرص عام ٢٨ هـ، وكانت أول غزوة للمسلمين في البحر، وما كادت سفنهم ترسو على ساحل قبرص حتى أذعن أهلها بالطاعة، وبعث أركونها يطلب الصلح، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها أهل قبرص، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفًا حياديًا في الصراع العربي البيزنطي، وأن يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من الروم. ونقض أهل قبرص العهد عام ٣٢ هـ عندما أعانوا البيزنطيين بتقديم سفن لهم، فغزاهم معاوية عام ٣٣ هـ في خمسمائة سفينة وفتح قبرص عنوة، ولكنه أقرهم على صلحهم، وبعث إلى قبرص جيشًا عربيًا عدته ١٢ ألفًا من أهل الديوان لتعريب قبرص.

وعندما فطنت بيزنطة إلى ما يهدف إليه العرب من نوايا توسعية حاولت تفويت الفرصة عليهم، فكان الاشتباك البحري الحاسم في ذات الصواري ٣٤ هـ (٦٥٤ – ٦٥٥ م) الذي كانت فيه نهاية السيطرة البحرية البيزنطية وبداية عصر القوة البحرية الإسلامية.

### موقعة ذات الصواري: (٣٤ هـ / ٦٥٤ – ٦٥٥ م)

بعد حملة قبرص شجع معاوية ازدياد قوته على التفكير في الهجوم على القسطنطينية ذاتها، وفي الوقت نفسه كانت السفن تبنى حثيثًا في الإسكندرية وطرابلس وجهات أخرى، ولكن

بينما كان العمل جاريًا في طرابلس تسبب أخَوان مسيحيان من طرابلس في أن تكون هذه الحملة لا ثمرة منها؛ إذ قاما بمساعدة أعوانهما بفتح السجن الذي كان فيه الأسرى البيزنطيين وقتلوا مدير السجن وحرسه وأحرقوا السفن وولوا هاربين بحرًا. ورغم ذلك لم يثنِ هذا معاوية عن الاستمرار في العمليات البحرية وأصبح الأسطول بفضل نشاطه وطاقته في النهاية معدًا مجهزًا. ولقد اضطرت سياسة المسلمين البحرية الجديدة البيزنطيين أن يُبقوا على أسطول قائم؛ ولذلك تولى قنسطانز الثاني قيادة من سبعمائة إلى ألف سفينة. ظهر هذا الأسطول غربي الإسكندرية حيث لم يتمكن المسلمون من حشد أكثر من مائتي سفينة ليصدوا هجومه. وتمخض اللقاء عن موقعة بحرية سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤ – ٦٥٥ م بين الأسطول البيزنطي وبين أسطولي مصر والشام متحدين تحت قيادة عبد الله بن أبي السرح في فونيكة غربي الإسكندرية. شعر المسلمون بالقلق عندما سمعوا بوصول أسطول بيزنطي، وطلب ابن أبي السرح المشورة من رجاله ثلاث مرات، ولكن أكد له النصر رجل من المدينة، وتلا قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ونزل نصف الرجال مع بسر بن أبي أرطأة إلى البر، ونزل في كل مركب نصف شحنة من الرجال، وأخذ كلا الفريقين يعد نفسه للمعركة بالعبادة طوال الليل ... فتلا المسلمون القرآن، ودق البيزنطيون الأجراس دون انقطاع. وكانت الريح باديء الأمر على غير ما يشتهي المسلمون، ولكنها هدأت بعد فترة، فالتحم الأسطولان أولاً بالسهام ثم أطلقوا الحجارة، وأخيرًا ربطت السفن ببعضها بالسلاسل ونازل المسلمون البيزنطيين في تلاحم بالسيوف والخناجر. وكادت سفينة بيزنطية تفوز بسفينة ابن أبي السرح لولا أن أنقذه علقمة بن يزيد بأن قطع السلسلة بسيفه. كانت خطة ربط السفن مع سفن العدو ثم القتال بالسيوف والخناجر لصالح المسلمين، ولما سمع قنسطانز الثاني عن هذه العمليات تأكد من هزيمته الساحقة. ونشأت هذه الفكرة لأن العرب كانوا معتادين على القتال برًا، وكان ربط السفن بالسلاسل أقرب إلى وضع القتال البري، ويبدو أن ذوي الخبرة البحرية لم يشتركوا

فعلاً في القتال. ويروى أن المسلمين فضلوا القتال برًا، بينما البيزنطيون فضلوا القتال بحرًا، وقد يكون هناك قتال بري. استمرت المعركة طوال النهار وطوال الليل وكانت مذبحة من الجانبين. وقال شاهد عيان للمعركة: "فوثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجؤون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركامًا". وأخيرًا لما رأى البيزنطيون أن البحر محيط بهم وأنهم عاجزون عن الصمود أمام هجمات المسلمين، هربوا وتشتتوا، وهكذا دُمر الأسطول البيزنطي تمامًا ولقي عشرون ألف رجل حتفهم في المعركة، وهرب الإمبراطور نفسه متنكرًا، وقد جرح عندما خُلِط بينه وبين الرجال الذين تبادل معهم الملابس. ويقال إن قنسطانز رأى في منامه هذه الهزيمة قبل وقوعها. وكانت الكارثة جسيمة لدرجة أن المؤرخين البيزنطيين لم يتمكنوا من إخفائها، ويضعونها في صف معركة اليرموك الفاصلة. ويطلق المسلمون على هذه المعركة الصواري لكثرة صواري السفن التي استخدمت فيها.

وبموقعة ذات الصواري هذه كانت نهاية السيادة البيزنطية البحرية، وعندئذ تعلم المسلمون شيئًا عن أهمية القوة البحرية وفن الملاحة، وأعيا أسطولهم على صغره قوة البيزنطيين حتى أصبحت حملة قنسطانز الثاني عديمة الجدوى وتحولت هزيمتهم إلى كارثة؛ إذ حملت العواصف بقايا أسطولهم المهشم وشتتته في اليم. ومن هذا الوقت لم تتعرض قوة المسلمين لأي تهديد خطير، وأصبحت مصر في مأمن من هجمات من الخارج، ولو أن المدن الساحلية ما فتئت تتعرض لغارات فردية. لم ينتهز معاوية فرصة هذا النصر ويهاجم القسطنطينية لأن أسطول المسلمين مُني بخسائر لا يستهان بها؛ ولذلك نبذ فكرة حملة القسطنطينية ذلك العام، وفي ساعة النصر الحيوية قتل الخليفة عثمان، وصاحب ذلك قلاقل داخلية، ورأى معاوية أنه من الأفضل عقد هدنة مع الإمبراطور قنسطانز الثاني سنة ٣٨ هـ – ٦٥٩ م، وتعهد فيها

معاوية بأن يدفع ألف نومسماتا وعن كل يوم يمر في سلام جوادًا وعبدًا؛ إذ كان معاوية مشغولاً في النضال من أجل الخلافة، وكان أول من عقد صلحًا مع البيزنطيين. ولكن سرعان ما رفض المسلمون دفع هذه الأتاوة بعد ذلك، وفُتح الطريق أمام حملات جديدة أمكن للقوة البحرية الإسلامية فيها أن تلعب دورها.

وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية عام ٤١ هـ، أخذ في تدعيم الدفاع عن السواحل. وتطلع العرب بعد ذلك لفتح القسطنطينية وجزر البحر الأبيض المتوسط وغيرها من أرض الروم. وأدرك ذلك الإمبراطور البيزنطي قنسطانز، فنقل عاصمته إلى سرقوصة بصقلية عام ٤٢ هـ؛ تركيزًا للدفاع عن إيطاليا أمام الدفع السريع للفتح الإسلامي للمغرب، ولكنه لم يلبث أن اغتيل على يد أحد قواده في سرقوصة عام ٤٨ هـ. وبعد أن تغلب معاوية على غزوة بحرية قام بها الروم على سواحل الشام عام ٤٩ هـ، اهتم بإصلاح دار الصناعة في عكا وإعدادها للعمل من جديد. ومنذ ذلك الحين أصبح المسلمون يمثلون خطرًا متزايدًا على البيزنطيين. وبدأ العرب ينافسون الروم في البحر، ففتحت جزيرة رودس عنوة عام ٥٢ هـ، وجزيرة أرواد (كزيكوس) عام ٥٤هـ في مياه القسطنطينية وكانت قاعدة لتوجيه الحملات البحرية أثناء حرب الأعوام السبعة، وجزيرة أقريطش عام ٥٥ هـ.

## الدور المصري في تأسيس البحرية الإسلامية:

١- استحواذ العرب على أم دنين التي كانت ميناءً زمن الفتح هيأ لعمرو الاستيلاء على عدد من السفن الكبيرة التي كان في أمس الحاجة إليها لنقل جنوده عبر النهر، فصنع جسرًا من المراكب عبر النيل من باب اليون إلى الروضة، ومن الروضة إلى الجيزة، وإلى هذا الحد يكون قد غطى عرض النيل كله وتحكم في حركة المرور والنقل فيه. وما

حلت سنة ٢١ هـ – ٦٤٢ م حتى كانت نهاية الحكم البيزنطي في مصر، إذ وقعت الإسكندرية في أيدي الفاتحين. وهكذا تم للمسلمين السيطرة التامة على القطر كله. وهذه الخسارة الجسيمة التي مُني بها البيزنطيون في ضياع مركز استراتيجي كمصر كان مكسبًا كبيرًا للمسلمين، كما أن امتلاك وادي النيل الغني بتياره الهادىء هيأ لهم طريقًا مائيًا لسفنهم.

٢- عندما عزم معاوية وهو والٍ على الشام على إنشاء أسطول بحري عربي إسلامي، كان يعلم تمامًا أن في إمكانه تحقيق هذا الهدف، فالأخشاب متوافرة في مناطق متعددة في مصر والشام، ومعدن الحديد متوافر بمصر والشام واليمن، وبمصر القطران الوارد من ليبيا. كما أن الأيدي العاملة كانت متوافرة في الشام ومصر. وقد لعب القبط دورًا رئيسيًا في صناعة الأسطول الإسلامي السوري والمصري والمغربي، وشاركوا في المعارك البحرية التي خاضها العرب ضد البيزنطيين. وازدادت أهمية البحرية الإسلامية منذ أن أسس مَسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر في عهد معاوية دار الصناعة بجزيرة الروضة عام ٥٤ هـ بعد مهاجمة البيزنطيين بلدة البرلس عام ٥٣ هـ.

٣- في عصر الخلافة الراشدة خاض الأسطول المصري مع الأسطول الشامي المعارك البحرية ضد البيزنطيين، وفيها اشترك مقاتلة من القبط مع إخوانهم المسلمين. وكان لتضامن مصر والشام في مرحلة التحدي البيزنطي لقوى الإسلام بعد حركة الفتوحات العربية الإسلامية ووقوف البلدين معًا إبَّان عمليات الغزو البحري التي كان يوجهها البيزنطيون إلى سواحل الشام ومصر أكبر الأثر في تحقيق أمل معاوية في إنشاء بحرية إسلامية، ولم تضن مصر عليه بخبرات ملاحيها وصناعها الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها، وكان من أثر هذا التعاون الوثيق قيام بحرية عربية إسلامية، شامية مصرية مشتركة، حولت خطط العرب من

استراتيجية دفاعية إلى هجومية في مرحلة مبكرة للغاية من تاريخهم الإسلامي، وغمرت صفحات هذا التاريخ بالأمجاد والمفاخر والبطولات.

كانت مصر خلال مراحل الكفاح التاريخي للعرب في العصر الوسيط المعقل الأمنع للإسلام ومركز الثقل في المنطقة كلها، وعليها وقع عبء النضال في معظم فترات التاريخ الوسيط ضد قوى العدوان، لا سيما العدوان الصليبي والمغولي الذي انحصر هدفه على سحق مصر وقهرها، وكان ذلك من أسباب انتقال مسرح الصراع الإسلامي الصليبي إلى مصر، وكان للشام أيضًا الفضل الأكبر في إنقاذ مصر والدفاع عنها عندما انتهز الصليبيون فرصة ضعفها وحاولوا الاستيلاء عليها زمن الخليفة الفاطمي العاضد، وشهدت مصر صراعًا عنيفًا بين نور الدين محمود بن زنكي الداعي إلى تأليف جبهة إسلامية متحدة، وبين الصليبيين في سبيل ضم مصر.

# الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

بعد قراءة هذا التاريخ العظيم، ومعايشة هذا الفتح المبين، وبعد أن امتلأت نفوسنا عزًا وفخرًا بما قدمه لنا الأجداد من تاريخ مشرق وحضارة عريقة نتيه بها فخرًا على كل الحضارات وكل الأمم، لو أني أرسلت خطابًا إلى هؤلاء الأجداد العظام شكرًا لهم وإقرارًا بفضلهم وسبقهم، ماذا عسى أن أقول فيه؟

إلى أجدادي الأعزاء ... إلى كل من شارك في هذا الفتح العظيم ... بدايةً بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثاني خليفة لرسولنا الكريم ... وعمرو بن العاص القائد المغوار الذي تهابه قلوب الأعداء ... وكل من ساهم من قريب أو بعيد في تحقيق النصر لجيش الفتح الذي ألبس مصر ثوب العزة والكرامة وأدخلها تحت راية الإسلام الخفاقة على جبين العالمين ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد،

لقد كتبتم بدمائكم وجهودكم سطورًا من نور في صفحات تاريخنا المشرق، وحملتمونا مسؤولية عظيمة في الدفاع عن حضارتنا، وحمل الراية واستكمال المسيرة، وإنها لمسؤولية ندعو الله أن يمكننا من القيام بها وأداء حقها على خير وجه. فلقد سلمتم الراية جيلاً بعد جيل، يحملها خير خلف عن خير سلف، وها نحن قد آن لنا أن نحملها، فنحن ـ شباب الإسلام ـ نقف في هذا العصر في مواجهة قرن جديد، لابد لنا أن نجد فيه مكان الريادة والقيادة لأمتنا الإسلامية، بما يتناسب وعظمة هذا الدين، وعراقة هذا التاريخ وتلك الحضارة، ولنا بكم الأسوة والقدوة في العزم والإصرار، والتحدي والقوة، والنصر المبين في نهاية الطريق، فنحن نعلم جيدًا أننا كما قال الشاعر:

مَلَكْنـا هذه الدنيـا القرونـا  وأخضعها جدودٌ خالدونـا

وسطَّرنا صحائفَ من ضياءٍ  فما نسيَ الزمانُ وما نسينا

فلا والله ما نسينا ... ولا والله لن ننسى بعون من الله وصون ... ونرجو ألا نعدم منكم دعوة مستجابة بفضل الله وكرمه ... إنه نعم المولى ونعم النصير.

طيَّب الله ثراكم ... وجعل الجنة مثواكم ... وجزاكم عن الإسلام والمسلمين، وعن مصر وأهلها خير الجزاء ... وألحقنا بكم في المقام الكريم ... وجمعنا في جنة الخلد أجمعين ... آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فتاة مسلمة مصرية

لو أني أرسلت هذا الخطاب عبر آلة الزمن ليصل إليهم، كيف يكون الرد؟

إذا قرأه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على قائده عمرو بن العاص ومن حوله من أجناد جيش الفتح، فيا ترى ما هم فاعلون؟!

أيرسل إليَّ أمير المؤمنين بمدد من الجنود والعدة والسلاح ... أيأتي عمرو بن العاص لينقذ الأمة من نكستها كما أنقذ الإسكندرية من ارتداد الروم إليها وفتحها الفتح الثاني عام ٢٥ هـ ... أيأتي عُبادة بن الصامت ليقف خطيبًا في الأمم المتحدة مدافعًا عن دينه وأمته، ومعددًا لأفضالها، ومُشيدًا بدورها في نهضة الأمم الأخرى كما وقف مدافعًا عن جيش الفاتحين أمام المقوقس، رسولاً من عمرو بن العاص إليه؟

أنا لا أطمح إلى كل ذلك منهم ... فغاية ما نرجوه هو الدعاء إلى الحي القيوم أن ينصر دينه وأمته، وأن يعيننا على السير في الطريق المستقيم، وأن يحفظنا من الزلل والضلال والحياد عن السبيل القويم ... فإن لم يمكنهم الدعاء فلندعُ نحن، وحسبنا منهم قول آمين.

رانيا المغربي

الإسكندرية في

١٠ من ذي الحجة ١٤٢٠ هـ

١٦ من مارس ٢٠٠٠ م

# جدول المحتويات

مقدمة ........ ٢

هدف البحث: ........ ٣

خطة البحث: ........ ٤

**تمهيد: في ذكر بعض فضائل مصر وأهلها ........ ٥**

الباب الأول: مصر منذ بدء الخليقة وحتى قبيل الفتح الإسلامي ........ ٧

نزول القبط بمصر: ........ ٧

دخول إبراهيم عليه السلام مصر: ........ ٨

دخول العماليق مصر، وحكم يوسف عليه السلام بها: ........ ٩

موسى وفرعون مصر: ........ ١٢

مصر بعد زمن فرعون إلى زمن الفرس والروم: ........ ١٤

مصر بين فارس والروم: ........ ١٧

بناء الإسكندرية: ........ ١٧

مساويء الحكم الروماني في مصر ـ الدولة والدين في مصر البيزنطية: ........ ١٩

الباب الثاني: دخول الإسلام مصر ........ ٢٤

بشرى عمرو بن العاص بملك مصر: ........ ٢٦

مراحل الفتح الإسلامي لمصر: ........ ٢٧

الباب الثالث: آثار الفتح الإسلامي لمصر ........ ٤٢

الفصل الأول: في الآثار الحضارية والعمرانية ........ ٤٢

الفسطاط: ........ ٤٢

بناء المسجد الجامع: ........ ٤٣

دار البرْكة: ........ ٤٤

تخطيط المدينة: ........ ٤٥

مدينة العسكر: ........ ٤٧

مدينة القطائع: ........ ٤٨

مدينة القاهرة: ........ ٤٩

الجيزة: ........................................................................................................ ٥١
جزيرة الروضة: ................................................................................................ ٥٢
الجامع الأزهر: ................................................................................................ ٥٣
دُور الصناعة: ................................................................................................. ٥٥
الفصل الثاني: في الآثار الإنسانية ............................................................................. ٥٨
تكوين الشعب المصري الجديد: ................................................................................. ٦٠
الفصل الثالث: في الآثار الاستراتيجية ........................................................................... ٦٥
استراتيجية فتح مصر: ............................................................................................ ٦٥
أسباب اختيار الفسطاط: ......................................................................................... ٦٥
شق خليج أمير المؤمنين: ......................................................................................... ٦٦
فتح برقة وطرابلس: ............................................................................................... ٦٧
رغبة عمرو بن العاص في فتح إفريقية: .......................................................................... ٦٨
مصر بوابة نشر الإسلام والفتح في إفريقيا: ...................................................................... ٦٨
فتح إفريقية: ....................................................................................................... ٦٩
غزو النوبة: ........................................................................................................ ٧٠
نشأة البحرية الإسلامية: .......................................................................................... ٧٠
إنشاء الأسطول البحري الإسلامي: ............................................................................... ٧١
موقعة ذات الصواري: (٣٤ هـ / ٦٥٤ – ٦٥٥ م) ................................................................... ٧٣
الدور المصري في تأسيس البحرية الإسلامية: ..................................................................... ٧٦
الخاتمة ............................................................................................................ ٧٩